10

حرب أهلية؟

أنشأ الديبلوماسيون الأوروبيون العراق في باريس بعد الحرب العالمية الأولى مكوناً من ثلاث محافظات عثمانية: الموصل وبغداد والبصرة. وحسب اتفاقية سايكس بيكو السرية عام 1916 بين بريطانية وفرنسة، فقد كانت الموصل ستصبح تحت السيطرة الفرنسية بعد الحرب؛ لاعتقادهم أن فيها حقول نفط ذات قيمة، لكن كليمنسو سلّمها بلطف إلى ليود جورج. اعتقد المفوض السامي الأول للانتداب البريطاني، السير آرنولد ويلسون (سلف بول بريمر في العراق بشكل من الأشكال)، منذ البداية أن العراق ممزق، بحيث يصعب أن يكون دولة مستقلة ناجحة. كان الأكراد في الجبال الشمالية، وهي جزء من محافظة الموصل القديمة، يتوقعون تحقيق دولة كردستان المستقلة بعد الحرب، وفجأة وجدوا أنفسهم محكومين من بغداد باسم كيان عربي شامل. كتب ويلسون إلى لندن: الأكراد «لن يقبلوا حاكماً عربيًّا أبداً». وكانت هناك مشكلة أخرى، فالغالبية الشيعية لن تقبل الحكم السنّي، وفي الوقت ذاته، فإن الضباط والطبقة الإدارية في الإمبراطورية العثمانية من السنّة، «فليس هناك بعد أي تصوّر لشكل حكومة لا تشمل الهيمنة السنّية». وقد تم حُذّرت مساعدة ويلسون الأسطورية، غيرترود بيل، التي كانت تسافر وتكتب في المنطقة سنوات، من قبل مبعوث أمريكي: «أنت تتحركين في وجه أربعة آلاف سنة من التاريخ، إذا كنت تحاولين أن ترسمي خطاً حول العراق وتدعيه كياناً سياسياً! كانت الدولة الآشورية تنظر دائماً إلى الغرب والشرق والشمال، والدولة البابلية تنظر إلى الجنوب. لم تكن أبداً كياناً مستقلاً. أنت بحاجة إلى وقت لدمجها، ويجب أن يتم ذلك بالتدريج. ليس لديهم مفهوم الأمة بعد».

كان البريطانيون في العراق، وفي كل مكان، يتحدّون سخافة ما يصنعون. وسرعان ما شغلوا بمشكلة أخرى أكثر إلحاحاً من إمكانية نجاح العراق، مشكلة بدا أنها توحّد الأكراد والشيعة والسنة، وهي تمرّدهم ضد الحكم البريطاني. في حزيران 1920، بدأت ثورة بين

العشائر الشيعية قرب المدن المقدّسة وامتدّت إلى السنّيين في الفلوجة، بينما كان الأكراد في الشمال يسبّبون المتاعب منذ أشهر. كانت مستويات القوات البريطانية غير كافية لإبقاء الأراضي الواسعة تحت السيطرة، وفي لندن كانت هناك شكوك خطيرة حول حكمة الاحتلال. وقد ظهر عنوان بارز في صحفية التايمز «من سيئ إلى أسوأ في بلاد ما بين النهرين». وتطلب قمع الثورة قوات إضافية من الجيش الاستعماري الهندي، وقصف جوي بريطاني، ومقتل ستة آلاف عراقي ونحو خمس مئة بريطاني.

وحسب الوصف الممتاز للمؤرخ ديفيد فرومكين لتلك الحقبة، في كتابه (سلام ينهي كل سلام)، وجد ويلسون الثورة غير مفهومة: «ما نواجهه هو فوضوية بالإضافة إلى التعصب. ليس هناك إلا القليل من القومية إن وجدت». كانت الحكومة في لندن ترى أيدي متآمرين مختلفين من خارج العراق: كالأتراك، والإسلاميين، والألمان، وشركات النفط، والبلاشفة، واليهود. لكن غيرترود بيل فهمت قوة القومية العربية في العراق، وعرضت على وينستون تشرشل أن يتم حكم العراق بشكل غير مباشر، وذلك بوضعه تحت الحماية، وإشراك النخبة السنّية العثمانية في إدارة الدولة الحديثة. وفي شهر تشرين الثاني 1920، كتبت إلى والدها أن المجلس الجديد الذي يهيمن عليه السنة في بغداد «يجمع كل الشيعة تقريباً ضده، أولاً لأنه بدا كسلالة بريطانية، وأيضاً لأنه يضم عدداً من الشيعة أقل من السنّة. والشيعة، كما كنت ألاحظ في الغالب هم إحدى المشكلات الكبرى». أما السنة بدورهم فقد كانوا «خائفين أن يغرقهم الشيعة»، كتبت بعد شهرين: «والحكومة الحالية، ذات الأغلبية السنية، لا تفعل شيئاً للمصالحة مع الشيعة».

ماتت بيل ودفنت في بغداد عام 1926، على الأرجح منتحرة، دون أن تحل المشكلة التي ساعدت في خلقها. فقد وقعت الغالبية الشيعية والأكراد تحت حكم الأقلية السنّية، أولاً في أثناء مدة الانتداب، ثم بعد الاستقلال عام 1932. وقد عمل الشيعيون وقليل من الأكراد في حكومات عراقية متعددة في حقبة الحكم الملكي، بمن فيهم شيعة شغلوا منصب رئيس وزراء، وفي العراق الجمهوري بعد انقلاب عام 1958 الذي أطاح بالملك. وكان الحزب الشيوعي العراقي القوي شيعياً في غالبيته، وفي السنوات الأولى لحزب البعث شغل الشيعة مناصب

مهمة. لكن في أثناء العقود التي حكم فيها حزب البعث، بدأ السنّة بالهيمنة، وركزت الفئة الحاكمة في عهد صدام على زمرة من الأقارب والعلاقات العشائرية من أنحاء تكريت. وحين أصبح الإسلام قوة سياسية بين شيعة العراق في أواخر سبعينيات القرن العشرين، قمعهم صدام بوحشية، وانتشر الوعي الشيعي في جنوب البلاد. أما الأكراد، فلم يتوقفوا عن القتال تماماً منذ إنشاء الدولة. لذا كان هناك قلق أن الاحتلال الأمريكي سيرث ثلاثة أجزاء لا تتفق أبداً مع بعضها، ومقدّر لها أن تحتك حتى تشتعل إن لم تكن منفصلة.

لقد ذكّر التمرد الذي أعقب الغزو الأمريكي بعض المؤرخين الهواة بثورة عام 1920 ضد البريطانيين. لكن كان هناك اختلاف أساس، وهو أن ثورة عام 1920 بدأ بها شيوخ العشائر الشيعية ؛ أما بعد الغزو، فقد كان الشيعة الذين حملوا السلاح ضد الأمريكيين قلة باستثناء ميليشيا الصدر. وكان السبب واضحاً: وهو أن ورثة آرنولد ويلسون وغيرترود بيل، المحافظين الجدد في واشنطن وسلطة الائتلاف المؤقتة في بغداد، كانوا قد قرّروا هذه المرة أن يجعلوا السلطة بأيدي الشيعة. لم يكن ذلك يتعلق بحكم الأغلبية فقط؛ فالعرب السنة في العراق كانوا يعدّون من أهم مصادر التذمر في العالم العربي؛ لأفكارهم العنيفة المعادية للغرب. وقد كان التمرد الأساس الذي بدأ بعد سقوط بغداد بوقت قصير، واستمر حتى هذا اليوم له صفة سنية دائماً.

في أثناء السنة الأولى بعد الحرب، رفض كثير من العراقيين استخدام مصطلحات السنة والشيعة والأكراد. وقد أخبرني الناس أن عبارة «المثلث السني» كانت تعد غير لائقة، وأن تلك المنطقة كانت من اختراع الأمريكيين. وكلما كنت أذكر إحدى الفئات العرقية التي لا تذكر، كان هناك من يخبرني (عادة رجل مهذب أشيب الشعر يرتدي سترة رسمية) أن هذه أفكار مستوردة من الغربيين والعرب المتطرفين، فلم يكن أحد يسأل عن السنة والشيعة والأكراد، إذ كان جميع العراقيين يعانون بشكل متساوٍ تحت حكم صدام، وكان للرجل نفسه عدد من الأقارب والجيران المتزوجين زواجاً مختلطاً. لم يكن من الممكن اشتعال حرب أهلية في العراق؛ لأن العراقيين لم يكونوا يفكّرون بهذه الطريقة. كنت دائماً أجد نفسي أفكر: ليت هذا يكون صحيحاً.

لقد أصبح العراق دون غطاء حكم الحزب الواحد مكاناً للمطالب العرقية المهيّجة والمتنافسة. وكانت زيادة التدين بين الشيعة عرضاً سياسياً أيضاً، يزعج حتى السنة (بالإضافة إلى السنيين العلمانيين) الذين لم يرغبوا في السيطرة. ومع ازدياد تعرّض المسؤولين وقوات الأمن ورجال الدين والحجاج الشيعيين للهجمات، طغت الصفة الطائفية للتمرد وللسياسة العراقية بشكل عام على النوايا الحسنة لأولئك الذين كانوا يصرّون أنهم جميعاً عراقيون. كما أن إخفاق سلطة الائتلاف المؤقتة في نزع سلاح الميليشيات (كما تعهّد بريمر أكثر من مرة)، ترك كل مدينة تقريباً تحت السيطرة الفعلية لإحدى الجماعات العرقية بدلاً من الحكومة. في بعض الأحيان كان يبدو أن حرباً أهلية لا يخوضها إلا السنّيون قد بدأت. أما الصبر الكبير للشيعة في عدم الثأر (باستثناء حملة اغتيال البعثيين السابقين) فلم يكن له علاقة بالقومية، وإنما بمعرفتهم أن قوة الأغلبية ستصبح قريباً في أيديهم. كما كان العنف العام والتفجيرات الإرهابية تنتشر أحياناً على طول الخطوط الشمالية، حيث يلتقي العرب والأكراد. كان انفصال الأكراد قوة واضحة لدرجة بدا معها أن السؤال الوحيد هو هل سيبقى الأكراد في العراق الجديد أو لا؟.

نظر بعض المراقبين الأمريكيين مثل ليسلي غيلب الرئيس السابق لمجلس العلاقات الخارجية، وبيتر غالبريث، الديبلوماسي السابق الذي كان مستشاراً للأكراد، إلى الفوضى وقرّروا أن تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق مستقلة ذاتياً هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يمنع اندلاع حرب أهلية. كان هذا يتعارض تعارضاً مباشراً مع السياسة الأمريكية الرسمية بوجوب المحافظة على «السيادة الإقليمية» للعراق. في رأي غيلب، كان التقسيم هو الحل لمشكلات أمريكة في العراق: اقطعوا المركز السني، واتركوه، وركّزوا القوات في الجنوب والشمال، وادعموا الديمقراطيات بين الشيعة والأكراد. وعندها بإمكان السنة، دون النفط في صحرائهم، أن يقرروا إن كانوا يريدون التعاون أو التلاشي».

لفت هذا التصوّر نظري؛ لأنه بعيد جدًّا عن قوام الحياة في العراق. فقد رصفت البلاد معاً قبل نحو قرن؛ ليس هناك إلا قليل جدًّا من العراقيين الأحياء الذين يذكرون أي شيء عن الزمن الذي سبق وجود العراق. والعقود التي عاشها العراقيون معاً نسجت روابط شخصية لا تعدّ وأوجدت شعوراً قومياً آذاه صدام بشدة، ولا سيما بين الشباب، لكنه مع ذلك كان حقيقياً.

ليس هناك شيء حتمي بشأن انقسام العراق. وإذا حدث وانقسم، فإن ذلك سيكون بسبب حماقة قادته. حذّر الأخضر الإبراهيمي، مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق، الذي سبق أن رأى حروباً أهلية في لبنان وفي بلده الجزائر، العراقيين قائلاً: «لا تحدث الحرب الأهلية لأن شخصاً ما اتخذ قراراً بأنه سيشن حرباً أهلية. إنها تحدث بسبب تهوّر الناس وأنانيتهم، ولأن الجماعات تفكر في نفسها أكثر من تفكيرها في مصلحة البلد».

ومع مرور عام 2004 وما فيه من عنف، أصبح العراقيون يتحدثون بصراحة أكثر عن خطر اندلاع حرب أهلية. ظن بعض الناس أنها تحدث بالفعل، وقال آخرون: إنها قد تحدث بشرارة واحدة. واتفق الجميع تقريباً، أنه إذا بدأت حرب أهلية، فالمكان الأكثر احتمالاً لحدوثها فيه هو مدينة كركوك ذات المزيج العرقي والغنية بالنفط.

كانت كركوك هي المدينة العراقية المفضلة لي. كانت حارقة في الصيف ومهملة ومليئة بالنفايات والاختناقات المرورية كأي مكان آخر في العراق. لكن منذ أول زيارة قمت بها إليها، وجدتها فاتنةً، وأحياناً ساحرة، حيث كنت أرى فيها حنين الماضي والتعقيد المخيف للحاضر متلازمين في كل شارع ضيق تقريباً، وفي قلب المدينة يكمن سرّ.

في زيارتي الثالثة والأخيرة لكركوك التقيت لونا داود.

كانت لونا في الرابعة والعشرين من عمرها حين قام صدام حسين بزيارة مفاجئة لبيتها، لكنها تصرفت كمراهقة. كان ذلك في مساء أحد أيام شهر تشرين الأول عام 1983. هبطت طائرتان مروحيتان في حقل مكشوف، وأحاطت الدبابات بالشوارع المرتبة لحي العرافة الذي تسكنه الطبقة المتوسطة، ويقطنه العاملون في شركة النفط، وظهر الرئيس عند الباب الخلفي لمطبخ داود محاطاً بحاشية كبيرة لحمايته. كانت حرب البعثيين الطويلة ضد الأكراد تشتد وظهر أن صداماً أراد أن يضمن ولاء العاملين في مصنع النفط المهم في كركوك. بعد عشرين عاماً، لا تزال لونا تشعر بالدوار حين تذكر زيارة صدام: كان وسيماً ببذلته العسكرية ذات اللون الزيتوني الداكن، وتوقف ليبدي إعجابه بالبيت ويطرح أسئلة ودّية. كانت رائحة عطره مميزة لدرجة أنها بقيت عالقة في اليدين اللتين صافحهما صدام

أياماً ولم تستطع لونا أن تزيلها بالغسيل، وكانت الرائحة عالقة في غرفة الجلوس بشدة لدرجة أن كان عليهم التخلي عنها.

رفض صدام تناول القهوة والشوكولا، لكن لفتت نظره لوحة لامرأة تسحب الماء من نهر تحت ظل الأشجار، كان شقيق لونا الذي يحارب في الصفوف الأمامية في الحرب العراقية الإيرانية، قد رسمها وطلب الرئيس أن يأخذها هدية. كانت عائلة داود من الآشوريين المسيحيين، لم يكونوا من العرب، وحين خاطب صدام والدة لونا باللغة العربية أجابت باللغة الإنكليزية التي تعلّمتها من المديرين البريطانيين لشركة النفط قبل تأميمها من قبل البعثيين عام 1972. فعنّفها صدام قائلاً: «لقد مضى ذلك الزمن. عليك أن تتعلمي اللغة العربية».

كانت هناك مقطورة رئاسية تقف في حديقة عائلة داود، واصطفّ الجيران؛ انتظاراً ليحين دورهم في الدخول ومقابلة الرئيس شخصياً. كانت تلك أيام مشرقة في العراق. وقدّم سكرتير صدام، برزان التكريتي، لكل من قدّم طلباً ثلاثة آلاف دينار من حقيبة مليئة بالنقود كانت معه. لكن لونا تندم دائماً؛ لأنها كانت خائفة جدًّا، فلم تدخل مقطورة صدام. دخلت أختها الأصغر فلّة، فخرجت تحمل المال وحصلت على عمل في شركة النفط. توسّل أحد أقارب لونا إلى صدام لإطلاق سراح أخيه الذي كان يمضي خمس سنوات في السجن؛ لأنه شبّه وجه أحد كبار البعثيين بوجه قرد. فأجاب صدام بأنه لا يستطيع التدخل في النظام القضائي. ثم خرج من المقطورة وأخبر السكان المجتمعين بأن العراق كان يحارب إيران؛ لحماية النساء العراقيات من قوات آية الله الخميني المندفعة. أقلعت الطائرات وافترض الجميع أن صداماً قد غادر كركوك. لكن المقطورة بقيت في حديقة عائلة داود، فقطع خط هاتفهم، وكان مطبخهم مليئاً برجال الأمن. ودون تفسير، طُلب من العائلة قضاء الليل في الطابق العلوي. وفي الثانية صباحاً، لم تكن لونا قادرة على النوم، فذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الأسفل نحو الحديقة. وكأنها في حلم، رأت صداماً يخرج من المقطورة مرتدياً ملابس بيضاء. وفي اليوم اللاحق كان قد رحل.

زار الرئيس كركوك ثانية عام 1990. لكن هذه المرة، حطّت طائرته المروحية في الساحة أمام مبنى المحافظة. في ذلك الوقت كانت لونا تعمل هناك محاسبة في قسم المالية. أعلن صدام عن حملة لتجميل كركوك، أي أن يتم تنظيف الحصن المسوّر، وهو الجزء الأقدم من

المدينة الذي يقع على تلة على حوض نهر «خاصة صو» أو «العظيم» من المدينة الحديثة، بدءاً بإخلاء العائلات الثماني مئة أو التسع مئة الأكراد والتركمان التي تسكن في بيوتها القديمة. في اليوم اللاحق، وصل خمسون مليون دينار إلى مكتب لونا من بغداد. كان أمامها خمسة وأربعون يوماً للبحث في سندات الملكية التي يعود بعضها إلى عام 1820، ودفع التعويض لمالكي البيوت التي سيتم إخراجهم منها.

لم يكن لعملية إخلاء حصن كركوك علاقة بتحديث المدينة. كانت تلك ذروة حملة استمرت أربعين عاماً عرفها العراقيون باسم التعريب. قام النظام البعثي في بغداد بترحيل عشرات الآلاف من الأكراد، من عام 1963 وحتى ليلة الغزو الأمريكي، حتى إن بعض المصادر الكردية تقول: إن عددهم بلغ ثلاث مئة ألف كردي من المدينة والمحافظة المحيطة بها، وأجبر الأقليات العرقية الأخرى على الخروج من بيوتهم، وجاء بعدد مماثل من العرب من الجنوب إلى كركوك. كان عمل لونا يقضي بتوزيع مبالغ مالية على العائلات التي تتم مصادرة منازلها، وتدقيق سجلات الملكية المتراكمة، والتعامل مع زحمة المبعَدين في مبنى المحافظة. لقد كانت بيروقراطية عاجلة للتطهير العرقي.

حين التقيت لونا في صيف عام 2004، كانت غير متزوجة، على عكس معظم النساء العراقيات، على الرغم من أنها كانت رشيقة، وحيوية في الخامسة والأربعين من عمرها، وكانت ترتدي ملابس غربية وتحمل نفسها بثقة. كانت لها عينان واسعتان وأنف حاد كالذي يظهر في تمثال من نينوى، وحين كانت تتحدث عن كركوك في عهد صدام، كانت ابتسامتها تظهر صفاً من الأسنان المعوجّة. قالت لي حين قابلتها في مكتبها: «إنها مأساة لا أريد أن أذكرها»، ثم بدأت بتذكّر كل شيء. قالت لونا: «لقد كانوا أناساً فقراء، كنت أرى في عيني كل من كان يأتي إليّ ليأخذ المال الجرافة القادمة لأخذ بيته». كانت الجموع التي تنتظر الإبعاد تملأ المدخل أمام مكتبها، فكانت النساء تصبن بالإغماء. ولأن الآشوريين المسيحيين كانوا يشكّلون أصغر المجموعات العرقية الكثيرة في كركوك ومن ثم أقلها خطورة، فقد كان لدى بعض المُبعَدين في مكتب لونا ثقة كافية بها ليلعنوا صداماً. وإذا طلبت الشرطة السرية من لونا تأخير الدفع لشخص ينوون اعتقاله، كانت تنبّه الشخص المعترض بهدوء؛ كي يغادر كركوك دون الحصول على المال.

في نهاية أحد الأيام الطويلة، اقترب مزارع كردي عجوز من مكتب لونا، فقدّمت إليه طلب مواقفة يمنح الحكومة ملكية أرض عائلته مقابل بضعة آلاف من الدنانير. أنهيت الإجراءات ولم يبقَ عليه إلا أن يوقّع.

قال الرجل العجوز: «أريد بعض الماء أولاً»، أعطته لونا كأس ماء، فوقّع على الأوراق، وسقط ميتاً أمامها.

قالت لي لونا: «الأشياء التي رأيتها لم يرها أحد».

قبل الغزو الأمريكي بأسابيع أرسلت الحكومة في بغداد أمراً سرّياً إلى المسؤولين في كركوك: أحرقوا فوراً كل الأوراق المتعلقة بخطة الإسكان المركزية، فقد كان هذا اسم ملطّف أطلقه النظام على حملة التطهير العرقي. كان البعثيون يحتفظون بالسجلات بدقة، فأشعل الموظفون خارج مبنى المحافظة ثلاث حاويات نفايات كبيرة مليئة بالأوراق واستمرت الشعلة نحو أربع وعشرين ساعة.

قرّرت لونا أن تتجاهل الأمر: «لا أستطيع إحراق هذه الأشياء، كيف يمكننا تعويض هؤلاء الناس إذا تم إحراق هذه الوثائق؟» لم يكن موقفها بدافع الإيثار فقط. كانت لونا من البعثيين (حيث كان ذلك من متطلبات العمل)، وأرادت أن تحمي نفسها من أي اتهامات باختلاس الأموال. كما أنها كانت فضولية حسب اعترافها. قالت لونا: «تعرف أنني أضع أنفي في كل شيء، أريد أن أعرف كل شيء». ولهذا كذبت على مديرها، وبدلاً من إحراق الملفات أرسلت بضع سيارات محمّلة بالأوراق إلى بيتها في العرّافة، وأطلعت عليها أختها فلة وأختاً أخرى غير متزوجة. وحين قابلت لونا، كانت معظم الوثائق محفوظة على سطح القاعة في مخزن مائل السقف تملك مفتاحه وحدها. كان في الداخل بحر من الأوراق يصل إلى طول الخصر لم يلفت انتباه المسؤولين العراقيين أو الأمريكيين بعد، مع أن بين الوثائق التي أنقذتها لونا كانت هناك رسائل سريّة تعرض الجهد المستمر لحزب البعث لتحويل كركوك من أكثر المدن تنوعاً إلى مكان يهيمن عليه العرب الموالون للنظام.

لم يكن ملف لونا يتحدّث عن الماضي فحسب، بل عن المستقبل أيضاً. فبعد الغزو أصبحت كركوك مسرحاً لصراع عرقي على القوة. كانت كركوك تشبّه بنيويورك، وفي أحيان أكثر،

بسـرابيفو. فكيفية تصـحيح العراق الجديد للظلم التاريخي الذي تسـجله الملفّات هي التي ستظهر الكثير عن نوع الدولة التي اختار العراقيون أن يعيشوا فيها، أو إن كانت ستبقى دولة على الإطلاق.

في المخزن، خاضـت لونا بين الملفّات وانحنت لتفتش بينها بذكاء، كأم للكثير من الأبناء الذين يصـعب التحكم فيهم. صـرخت لونا: «انظر -انظر- كم عدد الناس؟ هذه الأرض - وهذه الأرض- كم عدد الناس؟». «كيف يمكنني أن أعمل في كل هذا؟ هل تعرف كم يوجد في عقلي؟ كل هذا! كل هذا! يجب أن أخرجه!».

كانـت كركـوك تقع قـرب سـفح جبـال زاغروس، علـى مقربة مـن الحـدود الجنوبية لكردستان، المنطقة المستقلة ذاتياً التي تحرّرت من سيطرة البعث عام 1991. في أثناء عقود القتال المتقطع بين الجيش العراقي وعصـابات البشمركة الكردية، اعتبر النظام «كركوك» منطقة حساسة من الناحية الإستراتيجية، لوجود حقول النفط خارج المدينة التي تضم نحو 90%مـن احتياطـي العراق كاملاً. كان برنامج التعريب يهدف جزئياً إلى ضـمان سـيطرة بغـداد على المـوارد القيّمة. لكن جوهـر التعريـب كان عقديًّا. كان تاريخ كركوك وسـكانها يشـكّلان تحدياً للأحلام الفاشـيّة لحزب البعث العربي الاشـتراكي. فقد كانت مدينة ذات كثافة سـكانية كبيرة ومتنوعة على طريق تجاري بين القسـطنطينية وبلاد الفرس، ولم تكن للحضـارات التي تعاقبت فيها صـلة بالمجد العربي. كان السكان يعيشون في أحياء متقاربة، حول أسواق المدينة وحصنها، وكان الزائر يجد تنوعاً في الوجوه والثياب، وسلوكاً متسامحاً، ووجوداً علنياً للنسـاء وحياة شـارع متقنة عدة لغات في المدينة المختلطة. كانت كركوك تبدو أقرب إلى إستنبول منها إلى بغداد.

أخبرني مؤرخ محلي مسنّ، اسمه ياسين علي الحسين، أن «كركوك» بنيت على يد العبيد اليهود في الأسـر البابلي. وعلـى الرغم من أن الباحثين يشـكّكون في تلك الرواية، كان عدة آلاف من اليهود يسكنون خلف البوابات ذات الأقواس في الشوارع الخلفية المتعرجة للمدينة، حتـى قيـام إسـرائيل عام 1948، وكان كثير منهم يسـكنون قرب السـوق القديمـة القريبة من الحصـن. وهناك كنيسـة أرمنية تعود إلى الألفية الأولى (كان المسـيحيون يشـكّلون ما

يقارب 50%من السكان). في القرن الرابع قبل الميلاد لاحظ كسينوفون وجود مجموعة عرقية قد تكون الأكراد. وقد هاجر التركمان من آسية الوسطى، وهم مختلفون عرقياً عن الأتراك، إلى المنطقة قبل نحو ألف سنة. وفي أثناء الحكم العثماني الذي أنشئ في الحصن في القرن السادس عشر، واستمر حتى وصول القوات البريطانية في أثناء الحرب العالمية الأولى، أصبح كثير من التركمان المتعلمين ذوي مناصب إمبراطورية، بينما كان الرعاة الأكراد القادمون من الجبال الجنوبية يعملون عمالاً. قبل أكثر من قرن، بدأ المهاجرون العرب يستوطنون قرب كركوك، غالباً في الأراضي الزراعية غرب المدينة وجنوبها، وكان هؤلاء «العرب الأصليون» متميزين في كل شيء تقريباً عن أولئك الذين جاء بهم النظام البعثي. وقد ذكر إي. بي. سوان، موظف الاستخبارات البريطاني الذي تنقل عبر بلاد ما بين النهرين متخفياً بهيئة واحد من السكان المحليين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى أن: «(كركوك) لذلك عبارة عن مجموعة من جميع أعراق شرق تركية -اليهود والعرب والسوريين والأرمن والكدانيين والأتراك والتركمان والأكراد- ومن ثم، فهي تتمتع بقدر من الحرية ونبذ التعصب».

أصبح التعصب إرث التطهير العرقي. وبعد سقوط النظام، كانت هناك منافسة عنيفة على كل جوانب تاريخ كركوك. الأكراد والعرب والتركمان، جميعهم ادّعوا الأسبقية العرقية في المدينة التي لم يكن فيها إلا التعدّد. (حسب إحصاء عام 1957 للسكان، الذي أجري قبل بدء التعريب، كان في المدينة 40% من التركمان و35% من الأكراد). وقد رفض المؤرخ المسن أن يجيب عن سؤالي إن كان التركمان قد جاؤوا إلى كركوك قبل العثمانيين أم بعدهم؟ كان السؤال حساساً جدًّا. أما علي بياتلي، وهو محام تركماني، فقد أصرّ على أن قومه ينحدرون من السومريين مباشرة، ولهذا فهم أول من سكن «كركوك»، وأن لهم حقوقاً غير محددة. وقد كان لدى السياسيين الأكراد شعاران تم تصميمهما لإنهاء أي خلاف: «كركوك هي قلب كردستان» و«كركوك هي كالقدس للأكراد». في تلك الأثناء كان العرب غاضبين من فقدانهم للقوة فجأة عقب الإطاحة بصدام. كانت نظرة لونا داود لمستقبل مدينتها كئيبة. وقد قالت: «ستكون هناك حرب حتى النهاية، الجميع يقولون: إن كركوك لهم: العرب والأكراد والتركمان، فلمن هي؟ نريد أن تبقى أمريكة هنا وتغيّر العقول، وتعلّم معنى الحرية والإنسانية. هذا ما لا يعرفه شعبنا. إنهم حيوانات».

على بعد خمسة عشر ميلاً من المدينة، على طريق نحو الشمال الغربي، التقيت بمحمد خضر، وهو مزارع كردي يملك مزرعة خضراوات قرب مجمع سكني يبدو مدمراً. عاد خضر من أربيل إلى المنطقة مؤخراً، وهي مدينة في كردستان العراق حيث عمل جزاراً. بعد الغزو، تبع هو وزوجاه وأولادهم العشرة وخمس وعشرون عائلة أخرى الجنود الأمريكان والأكراد جنوباً نحو العراق بهدف استعادة أمشاو، وهي قريتهم وقرية أجدادهم من العرب الذين استوطنوها. أخذني خضر الذي كان يرتدي السراويل الكردي التقليدي الذي يكون ضيقاً عند الخصر والكاحلين وعريضاً حول الساقين، إلى الهضاب المحيطة. كان الفصل ربيعاً وفي أثناء العشب الأخضر كانت هناك بقع من الأزهار البرية الصفراء والورود الحمراء التي تعد رموزاً حزينة في الشعر الكردي.

قال خضر، مشيراً إلى منحنيات يغطيها العشب على الهضبة: «هذه هي القرية»، كانت قطع الفخار والطين ملقاة في الأوساخ. «كان هذا بيتنا. هنا بالضبط». وفي أعلى التلة، كان هناك حقل من شواهد القبور المكسّرة التي تشير إلى مقبرة القرية.

في عام 1961، بدأت المرحلة الأولى للحرب الطويلة بين الحكومة العراقية المركزية والبشمركة الكردية. طالب الثوار الأكراد بالحقوق اللغوية والثقافية، وبالسيطرة على الشؤون الأمنية والمالية للمنطقة، وبالسلطة على كركوك ونفطها. وفي عام 1963، عقب الانقلاب الذي جاء بالبعثيين إلى السلطة أول مرة، هاجم الجنود العراقيون أمشاو، والقرى الأخرى. كان خضر في الثالثة من عمره. قال خضر: «أذكر ذلك كحلم حلم مزعج، يبكي فيه الأطفال ويقاتل فيه الناس ويموتون». وفرّ القرويون إلى الشمال، حيث أُجبروا على التراجع إلى أربيل. وتم تهديم أمشاو.

سألت خضراً إن كان قد تم تعويض عائلته عن خسارتها؟

قال خضر، وهو يحدّق إلي بدهشة: «هل تسخر مني؟ لقد أخذوا كل شيء. هل ترى حالي الآن؟ هكذا غادرنا تماماً دون بطانيات، ولا شيء».

ومدة عقد من الزمن كانت الحكومة المركزية والعصابات الكردية تراوحان بين القتال والتفاوض. لم تتغير القضايا، حتى الآن، ولم تكسر حلقة عدم الثقة وسوء التقدير والغدر:

مطالب كردية، رضوخ عربي بسبب الضعف العسكري، مطالب كردية متزايدة، غدر عربي من موقع قوة. وبعد أن عاد حزب البعث إلى السلطة عام 1968، تعهّد صدام نفسه، في محادثات سرية مع القائد الكردي مصطفى برزاني، أن يقدّم النظام كل ما كان يطلبه الأكراد تقريباً، بما في ذلك التصويت في المستقبل على وضع كركوك بعد إحصاء للسكان. كانت المساكن المجاورة لحديقة الخضراوات التي التقيت فيها بمحمد خضر قد بنيت في أثناء هذا الصلح بزعم أنها لإسكان الأكراد العائدين فيما كان سيسمى أمشاو الجديدة. لكن الأراضي المحيطة بأمشاو كانت قد وزّعت على العشائر العربية من الجنوب. وعندما أخفقت المفاوضات واندلع القتال من جديد، تم إعطاء المنازل في أمشاو الجديدة إلى العرب. وفي عام 1975، بعد أن وقع شاه إيران -بناءً على طلب هنري كيسنجر- اتفاقية مع بغداد وسحب الدعم الإيراني للأكراد، انهارت المقاومة. وبدأ النظام الغني بالنفط الذي لا يمكن مقاومته من الناحية العسكرية، بتعريب كركوك بشكل جدّي.

صبيحة حمود وزوجها من العرب الذين انتقلوا مع عائلاتهم من بغداد إلى كركوك في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وتم إغراؤهم بمنزل مجاني وعشرة آلاف دينار. قالت صبيحة: «يعرف العرب أمثالنا بالمستفيدين، أتينا إلى هنا فقط لنسكن في بيت. كان زوجي يعمل في وزارة الإسكان، لكن راتبه لم يكن يكفي لشراء بيت». كانت الغالبية العظمى من المستفيدين مثل حمود من الشيعة، وكان كثير منهم موظفين في الجيش، أو جهاز الاستخبارات، أو الخدمة المدنية. وكان المنزل المقدّم إلى عائلة حمود في حي للطبقة الوسطى اسمه حي تيسان، على الطريق من قاعدة كركوك الجوية. كان ذلك الحي للتركمان بالكامل تقريباً إلى أن قرّر النظام، في أواخر الحرب العراقية الإيرانية أن التركمان يشكلون خطراً أمنياً على القاعدة. ولم تكن هناك سياسة لتهجير التركمان كما هي حال الأكراد؛ لذا فقد انتشرت العائلات -التي يبلغ عددها خمسة أو ستة آلاف- التي اشترت في تيسان في أنحاء المدينة. أقنعت حمود نفسها أنه قد تم تعويض المالك السابق لمنزلها بشكل جيد، وأنه لا يحمل لها ضغينة.

وعلى بعد عدة أبواب يقع المنزل الذي كان لعائلة فخر الدين أكبر، وهي امرأة تركمانية كانت تعمل مع لونا في قسم المالية. كان والدها قد بنى المنزل المكوّن من طابقين وتسع

غرف. وفي أحد الأيام، في عام 1988، استلمت العائلة رسالة حكومية تعلن عن إنشاء خط للسكك الحديدية في الحي. تتذكر أكبر: «أعطونا مهلة ثلاثة أيام، في اليوم الثاني، كان رجال الشرطة يقفون عند الباب، فأخذنا أثاثنا وذهبنا للإقامة عند عمتي على الطريق إلى بغداد». وأعطيت العائلة مبلغاً من المال يمثل أقل من ربع قيمة المنزل. لم يتم إنشاء خط السكة الحديدية. وقبل سنوات، قرّرت أكبر، بينما كانت تحضر جنازة في حيّها السابق، أن تذهب وتنظر إلى البيت للمرة الأولى منذ طرد عائلتها: «قلت لنفسي: فلأمشي أمام الباب. لن أكلّمهم، لمَ علي أن أكلمهم؟ أنا لا أعرفهم، وهم لا يعرفونني». كان المستفيدون الذين حصلوا على البيت قد طلوا بابه الخشبي الجميل باللون الأزرق.

اتخذ التطهير العرقي في كركوك منحى تدريجياً، لكن البعثيين كانوا يتبعون خطة شاملة. كانت الخطة تقضي بجعل كركوك مدينة ذات غالبية عربية، وإحاطتها بحزام أمني من الأحياء العربية، خاصة على الأطراف الشمالية والشرقية الحساسة، المواجهة لكردستان. وحسب هذه الخطة، منع القانون الأكراد من بناء البيوت أو شرائها أو تحسينها في كركوك. ولم يكن لأي عائلة كردية لا تستطيع إثبات إقامتها في كركوك منذ إحصاء السكان عام 1957 أي حق قانوني بالسكن فيها، مما يعني طرد آلاف الأكراد إلى معسكرات للاجئين في كردستان أو مناطق الجنوب القاسية. وبعد عام 1980، منع تدريس لغات أخرى غير العربية في مدارس المدينة. وتم حرمان الأكراد وغير العرب في كركوك من الوظائف الحكومية، قبل الحرب كان في شركة النفط أحد عشر ألف موظف منهم ثمانية عشر من الأكراد، حسب مسؤول كردي. وتم ترحيل عائلات البشمركة الكردية، وغيرهم ممن يشكلون تهديداً للأمن. أعلن أن الأحياء الكردية غير قانونية وتم هدمها لتوسيع شارع، أو بناء مصنع للذخيرة أو مجمع رياضي، أو لتوسيع قاعدة، لكن السبب الحقيقي كان دوماً خفض عدد السكان الأكراد واستبدال العرب بهم.

خُيّر بعض الأكراد بين أن يغادروا المدينة أو أن يصبحوا عرباً. وكان هذا يدعى «تصحيح» الجنسية، وقَبِل آلاف الأكراد والتركمان الذل للبقاء في كركوك والحصول على عمل أو الحصول على إذن عمل. التقيت في مكتب لونا مهندساً تركمانياً في منتصف العمر

اسمه عبد الرحمن صادق الذي قال: «سأخبرك قصة لطيفة» في عام 1980، تم إبعاد عائلة صادق من قرية اسمها بيلاوا، على مقربة من حدود المدينة، والقاعدة الجوية، مع القرويين الآخرين الذين كانوا جميعاً من التركمان. وانتقلت عائلته إلى المدينة، بعد أن أعطيت أراضيها للعرب. وفي عام 1999، احتاج صادق أن يصحح جنسيته؛ لكي يسجّل أرضه باسمه. ابتلع كبرياءه وأصبح عربياً، لكنه لم يجنِ إلا أن قيل له: إنه لا يزال لا يستطيع أن يسجّل الأرض باسمه، مع أنه عربي الآن، فهو من بيلاوا وليس من كركوك. لذا كان عليه أن يسجّل ملكية الأرض باسم شقيقة زوجه التي كانت قد صحّحت جنسيتها أيضاً، لكنها ولدت في المدينة. كانت شبكة القواعد التي تتحكم في حياة الأفراد، والمذلات والسخافات المرافقة، هي الشكل العراقي للتفرقة العنصرية.

في مكتبها في المدينة، قامت مهندسة معمارية كردية مقيمة في كركوك طوال حياتها، اسمها حوري طالباني بنشرخريطة للخطة البعثية المدنية الرئيسة عشرين عاماً، تم رسمها عام 1972 من قبل شركة يونانية استخدمها النظام. كانت الخطة تسمح للمدينة بالتطور في اتجاه واحد فقط: الجنوب، باتجاه بغداد. أصبحت هذه الأحياء أحياء تعريب، وكان فيها شعور مختلف عن المدينة القديمة: خمود القرية المفرطة في النمو، برجالها الذين يرتدون الملابس البيضاء ونسائها الملفوفات بالعباءات السود، والأبنية الجديدة الملقاة في إسمنت سمج على الشوارع الواسعة الفارغة. أما الأحياء التركمانية والكردية التي نجت من التهديم في مركز المدينة فقد أصبحت مخنوقة بزحمة السير ومحرومة من الحدائق والمجاري والمواصلات العامة. وقد تم تحويل مياه نهر خاصة صو نحو الغرب لري الأراضي الزراعية العربية، وحوض النهر الجاف بالقمامة. وبينما استمرت الهندسة الاجتماعية على نطاق واسع، تحولت المدينة الغنية بالنفط إلى أنقاض. قالت طالباني: «لم تكن هناك فكرة مخلصة لجعل كركوك مدينة حقيقية، كنا نتراجع كل سنة بدل أن نتطوّر».

أخذني صحافي كردي اسمه عمر عبد القادر في جولة في حي قديم جدًّا اسمه الإمام قاسم على مجرى النهر شمال الحصن. كان قد ولد وتربى في حي الإمام قاسم، وكان حفيداً لمّلا وابن مدرّس، كان يتزعم منظمة سياسية كردية سرية في كركوك. اعتقل الأب

عام 1986 وأُعدم عام 1987، وفي عام 1988 تم وضع عبد القادر ووالدته وأخواته في شاحنة حكومية وإلقاؤهم خلف حدود المدينة. ومع السنوات، تم جمع الأقارب والجيران الذين بقوا في أحياء أصغر وأصغر، كانت المجمّعات المبنيّة لأسرتين أو ثلاث عليها أن تضم عشر أو إحدى عشرة أسرة. في الشوارع الخلفية للإمام قاسم، كانت البيوت الأثرية من الحجارة والطين على الطراز التركي، ذات الأعمدة الحلزونية المطلية على أحد جانبي المدخل والأقواس المحيطة بالباحة الداخلية، مجوّفة حرفياً بسبب الإهمال. حتى المقبرة الكردية أعلى التلة، التي يرقد فيها والد عبد القادر، كانت كثيفة ومحصورة كالمدينة. قال عبد القادر: «يمكنك أن تقول: إن الأكراد كانوا بالكاد أحياء. لم تكن تلك حياة، إنها كنوع نباتي أو حيواني مهدّد. ماذا كان الأكراد يفعلون للبقاء؟ كانوا يغيرون جنسياتهم، كانوا يختبئون، كانوا يقومون بأدنى الأعمال، أي شيء للبقاء على قيد الحياة».

كانت السنة التي تم فيها إخراج عائلة عبد القادر من كركوك، 1988، ذروة اضطهاد النظام للأكراد. وصل تدمير القرى الكردية في الجبال -الذي يعرف باسم الأنفال، وهو منفصل عن التطهير العرقي في كركوك- حدّ الإبادة، حيث تم استخدام الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين في حلبجة وأماكن أخرى. ونحو آخر ذلك العام، كتب محافظ كركوك رسالة إلى الموظف المسؤول عن التعريب، الأمين العام للجنة الشمال، طه ياسين رمضان، الذي كان كردياً، إضافة إلى كونه صديقاً مقرّباً لصدام وزميل زنزانته في الشباب، وأخيراً عشرة الديناري في أوراق اللعب التي تشير إلى الأشخاص المطلوبين من قبل الأمريكيين. وكان العراقيون يعرفونه باسم «الجزار». تقدّم هذه الرسالة، التي كانت بين الأوراق التي أنقذتها لونا من قاعة المدينة، تقريراً عن مرحلة شديدة من حملة التطهير العرقي في كركوك، من 1 حزيران، 1985، إلى 31 تشرين الأول، 1988:

كتب المحافظ: «نودّ أن نعلمكم بأننا اتبعنا الأوامر والتوجيهات الصارمة التي أصدرتموها لعملنا، التي دفعتنا للعمل بجد أكثر لخدمة المواطنين، أبناء قائد النصر والسلم الشجاع، السيد الرئيس القائد صدام حسين»، وبعد ذلك كان هناك بيان إحصائي مفصل لثلاث سنوات من التطهير العرقي:

-إجلاء 19. 146 شخصاً من القرى «ممنوعون لأسباب أمنية».

-وثائق تسجيل لـ 96.533 شخصاً تم نقلهم من كركوك إلى محافظة أربيل تمهيداً لإبعادهم.

- 2405 أسر أبعدت من القرى الواقعة قرب منشآت النفط المحظورة.

- 10.918 أسر عربية، تضم 53.834 شخصاً، تم نقلهم إلى كركوك من محافظات أخرى.

- 8250 قطعة من الأراضي السكنية و1112 بيتاً تم توزيعها على العائلات العربية التي تم نقلها من المحافظات الأخرى.

تشير الرسالة إلى أن عمليات الإبعاد والنقل والتوزيع هذه أضافت 51.862 شخصاً من العرب إلى المحافظة وحذفت 18.096 من الأكراد في أثناء هذه المدة، مما جعل العرب المجموعة الأكبر في كركوك أول مرة. بالإضافة لذلك، تم اتخاذ سبعة إجراءات «لزيادة جمال المدينة»، بما في ذلك نشر بائعي الخضراوات والفواكه في أنحاء المدينة. وكتب المحافظ لبغداد قائلاً: «سنعطي الأولوية للأحياء الجديدة في أي بناء أو مشروع خدمات جديد تتم إقامته». ويختم رسالته بالقول: «كل هذا سهّل عميلة المراقبة لمنع تسرب أي من العائلات التي شملها الإبعاد إلى داخل المدينة، ولمنع تسرب المخرّبين إلى المدينة، والآن تجري عملية الإبعاد من مركز المدينة».

وبعد عامين، قبل غزو الكويت، أعلن صدام أمام مبنى محافظة كركوك عن إخلاء جميع الناس من الحصن. حسب قول عقاب فاضل، مدير متحف كركوك الأثري الذي أشرف على تهديم المساكن، فإن هدف مشروع الحصن هو ببساطة التنقيب عن الآثار وترميمها. فالبيوت العثمانية التي تعود إلى عام 1850 في الموقع لم يحافظ عليها بشكل جيد وكانت مزدحمة بشكل غير صحي، ويقطنها المستأجرون الفقراء في الغالب. أصرّ فاضل: «لم يكن لإخلائهم علاقة بالسياسة»، لكن الحصن كان قلب المدينة. وفي عيد المسلمين كان المسيحيون يشاركونهم في الاحتفال عند قبر الأنبياء، وهو ضريح قديم يُدعى زوراً أن دانييل وعزرا مدفونان فيه. وفي الأعياد المسيحية، كان المسلمون يبادلونهم التهنئة.

في السوق تحت أسوار الحصن، يتذكر مالك تركماني لمحل ألبسة نسائية أن الحصن كان قبل سنين موقعاً لأعياد كثيرة. وفي هدوء ليالي الصيف، كان يسمع صوت زيت القلي، وكانت رائحة اللحم المشوي تسري إلى السوق. وقد قال لي: «حسبما سمعت، كان التركمان يعيشون هناك».

قال زبون كردي: «لماذا تقول ذلك؟ نحن كنا نعيش هناك أيضاً».

في الطرف المقابل من الزقاق، قالت لي امرأة تركمانية تبيع الأحذية والمحافظ: «كنا آخر الناس الذين غادروا الحصن». كان لوالدها، الذي كان تاجر بذور ثرياً، بيت كبير قرب البوابة الغربية يطل على النهر. كان يبني بيوتاً عند الحصن لليهود الذين يشغّلهم كتبة. قالت المرأة: «كان لنا علاقات مع كثير من الناس في الحصن، بصفتنا أسرة، وليس جيراناً». وفي أحد الأيام، طرق البعثيون الباب: كان لدى العائلة شهر لإخلاء بيتهم. قالت المرأة: «كان الحصن أكثر الأماكن جمالاً، قضيت طفولتي هناك. أنا أراه كل يوم». وأشارت إلى بقايا جدار حجري، علاه العشب الأصفر، وكان يرى فوق المحلات على الطرف المقابل من الزقاق.

أجّلت حرب الخليج والعقوبات التدمير النهائي للبيوت حتى عام 1998. لكن في ذلك الوقت كان الحصن فارغاً منذ ثماني سنوات، ولم يكن يسمح لأحد بالصعود إليه سوى أفراد وحدة الحرس الجمهوري الذين كانوا يتمركزون في الحصن لقمع أي تمرّد أو هجوم. حدث الهجوم عام 2003، في موجة من قوات البشمركة الكردية والقوات الأمريكية الخاصة التي اجتاحته من الشمال، وانهار حلم كركوك العربية بين ليلة وضحاها.

بعد تحرير كركوك بأسابيع قليلة، طُلب إلى ملازم في الرابعة والعشرين من عمره من الكتيبة رقم 173 المحمولة جواً اسمه جوردان بيكر من قبل قائد سريّته أن يحلّ مشكلة العرّافة، الحي الذي كانت لونا داود تعيش فيه. ومن بين آلاف المبعدين الأكراد الذين عادوا إلى كركوك بعد الحرب للمطالبة ببيوتهم وأراضيهم -مطاردين للمحتلين العرب في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى ليجدوا أنهم قد فرّوا- كانت سبع وستون أسرة تجثم في البيوت الفارهة التي هجرها كبار موظفي شركة النفط في العرّافة. كان الأكراد يعيشون سنوات

في مخيمات للاجئين في التلال المحيطة بالسليمانية. وقد أوكلت إلى بيكر الذي كان لديه رف مليء بالكتب عن اللغة الكردية وتاريخ الشرق الأوسط في خيمته في القاعدة الأمريكية، مهمة إخبار الأكراد أن عليهم إخلاء البيوت؛ لكي يعود موظفو شركة النفط ويمكن إنعاش الصناعة. في البيت الأول الذي قام بزيارته، أقسمت الزوجة أنها ستحرق نفسها إذا أجبرها الأمريكيون على ترك البيت. عاد الملازم إلى القاعدة وتشاور مع قائده. فقرّرا العودة والمحاولة من جديد، لكن هذه المرة، ترك بيكر درعه، وهو من جنوب كاليفورنية، وله عينان زرقاوان وجسم قوي. في هذا المظهر الأقل تهديداً، جلس مع الأسرة ساعتين. قال بيكر: «كنت أعلم أنهم عاشوا حياة بائسة، وأعلم أنهم سيعيشون ببؤس مدة. حين تقرأ عن التاريخ والسياسة، لا تتعلم عن عقلية هؤلاء الناس. وقد تعلمت أن لدى هؤلاء الناس شعوراً بالتاريخ والصبر التاريخي. لديهم شعور بما هو أفضل لجاليتهم، وحين تقنعهم فإنهم يدقّون إسفيناً بين جاليتهم وبين الأمريكيين، وهم يدركون أنهم لا يريدون القيام بذلك». كانت مناقشة بيكر للأكراد نظرية: «إذا كان لديكم بيت في بلد غير مستقرة وفيها عنف، فإن كل ما لديكم هو بيت. لكن إذا كان لديكم بيت في بلد مستقرة ويحكمها القانون، فإن لديكم أكثر كثيراً من بيت». ثم صاغ موقفه بعبارات ملموسة أكثر: «أعرف أنكم ستجدون مكاناً تسكنون فيه؛ لأنكم أكراد، ولم يكن لديكم مكان تسكنون فيه منذ اثنتي عشرة سنة، ولم يكن لديكم وطن. لكن أن تكسبوا الحرب لا يعني أنكم تفعلون ما تريدون دون حساب. لكن إذا ساندتم القانون ضد عدالة المنتصر، فإنكم تستثمرون في مستقبل العراق». ابتسم بيكر، «ووافقوا».

غادر الأكراد الذين احتلوا البيوت العرّافة. كان ذلك في الأسابيع الأولى، حين كان الأكراد يرون الأمريكيين منقذين وكانوا راغبين في تأجيل التصحيح قليلاً بعد. كانت قوات المظليين في كركوك متقدمة كثيراً عن نظرائها في بغداد في ذلك الصيف الأول. عاشت الفرق العسكرية في بيوت آمنة في أنحاء المدينة، وليس في القاعدة الجوية المعزولة، واستخدمت كتيبة بيكر خمسين مترجماً محلياً؛ لأن الشركة الأمريكية المتعاقد معها كانت بطيئة جدًّا، إذ كان الجنود يتنقلون في أنحاء كركوك بسهولة، وأحياناً في سيارات ذات الدفع الرباعي، ومن ثم كانت الكتيبة قد فتحت تسعة مراكز للشرطة فيها ألف وسبع مئة شرطي تم اختيارهم بعناية

لمراعاة التوازن العرقي، وتم تجهيزهم بالأسلحة والمركبات. أما سلطة الائتلاف المؤقتة فقد كانت مصدر إزعاج بعيداً، فلم تكن توافق على الخطط أو تصرف المال بسرعة كافية لتلبية احتياجات الكتيبة 173 المحمولة جواً. في تلك المدة، كانت كركوك تبدو مدينة تحت السيطرة.

كانت القوات معتادة على مهام ثلاثة أسابيع، لكونها قوات مظلية، وكان قائد كتيبة بيكر، الكولونيل دوم كاراسيلو، وهو رجل سمين قليل الصبر في الحادية والأربعين من عمره من ريف نيويورك، لا يخفي إحباطه؛ لكونه عالقاً في العراق منذ أشهر. قال كاراسيلو بصوته الخشن، حين كنا نجلس في حيّه وبصق في زجاجة ماء: «إذا دخلت لفعل شيء فعليك أن تفعله بشكل تستطيع معه أن تقول حين تغادر: إنك حققت الأهداف التي أتيت من أجلها في الماضي كانوا يقولون لنا: إن كتيبة الشؤون المدنية ستأتي وتتولى العناية بالشؤون المدنية. وهذا هراء، هذا لا ينفع. ولا أدري لماذا لا ينفع». الجنود المدرّبون على تشغيل قذائف الهاون وشن الضربات الجوية لم يعد لديهم ما يفعلونه، فقاموا بتدريب قوات الشرطة. وعمل جنود سلاح الإشارة مع أقسام الإطفاء وخدمات الطوارئ. أما فصيل الدعم والنقل فقام بإعادة توطين اللاجئين العائدين. لكن الدور الرئيس الذي أداه الأمريكيون في كركوك المقسّمة عرقياً كان، كما قال أحد الجنود «كمن وجد نفسه وسط معركة لا دخل له فيها».

حين عدت إلى كركوك في الصيف عام 2004، كانت فرقة أخرى قد استلمت، وكان الصبر التاريخي للأكراد ينفد. وكانت خطابات المجموعات العرقية الثلاث الرئيسة في المدينة تصبح متطرفة، كما أن سمعة الأمريكيين كانت قد بدأت تسوء. شرح كلام بيكر للأسرة في العرافة سياسة سلطة الاحتلال بشكل أفضل من كلام أي مسؤول رفيع المستوى: يجب الفصل في الشكاوى القديمة وفق القانون، وليس بالقوة، وإلى أن يتم وضع آلية قانونية، يجب المحافظة على الوضع الراهن. لكن حتى الآن، بعد مرور أكثر من عام على الإطاحة بصدام، لم تكد الآلية القانونية للفصل في قضايا الملكية الفردية تبدأ بالعمل. أما حول الحل السياسي الأكبر لوضع كركوك، فقد تجنبت سلطة الاحتلال أن تفرض حلاً، والدستور الانتقالي أجّله؛ حتى تتمكن الحكومة المنتخبة من كتابة الدستور الدائم. وبقيت مسألة كركوك مؤجلة بشكل خطير، بينما كانت الحقائق التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث نتيجة متطرفة تتراكم باستمرار.

بعد الغزو، تم اقتلاع آلاف العرب في الشمال من منازلهم. وقد قدّر البرنامج الدولي للمهجرين في العالم Global IDP[1] العدد بمئة ألف، على الرغم من أن عدم وجود منظمات دولية في العراق جعل الوصول إلى أرقام دقيقة أمراً مستحيلاً. وفي شمال غرب كركوك، في قرية أمشاو، استولى محمد خضر وغيره من الأكراد المبعدين عام 1963 على البيوت المهدّمة جزئياً للعرب الذين تم إحضارهم إلى أمشاو في سبعينيات القرن العشرين. كانت البيوت مهجورة حين وصل الأكراد، كما قال خضر. وقد وجدت هؤلاء العرب أنفسهم يقيمون في الثكنات التي قصفتها طائرات المروحية لقاعدة جوية عراقية تقع غرب المدينة، قرب القاعدة الأمريكية. وقد قال رجلان مسنّان كانا يتحدثان نيابة عن الأسر الاثنتين والخمسين هناك: إن المقاتلين الأكراد طاردوهم وأخرجوهم من أمشاو في نهاية الحرب.

قال أحد الرجال العرب، واسمه علي عدي: «لدينا شباب يعتقدون أن أمشاو ملك لهم، وأنا أقول لهم: يا بني، يقولون: إنها ملك للأكراد. فيقولون: كيف يمكن ذلك؟ لقد ولدنا ونشأنا في تلك البيوت». وأشار الرجل العجوز إلى أن عدد الأسر الكردية التي استولت على أمشاو كان نصف عدد العرب الذين هربوا منها، فقد كانت هناك بيوت في أمشاو تكفي خمساً وعشرين أسرة عربية لتعود وتعيش مع الأكراد. قال علي عدي: «نريد فقط أن نعرف من سيعطينا حقوقنا»، أعطى الجنود الأمريكيون في المنطقة للاجئين بطانيات وطعاماً وطلبوا منهم البقاء؛ حتى يمكن حل المشكلة قانونياً. «أين الحكومة التي ستعطينا حقوقنا؟ هل سنحصل على حقوقنا من أمريكا أم من الحكومة العراقية؟ نحن لا نعرف. لا يمكن تركنا هنا فقط دون حقوقنا».

على بعد ميل، نصب مخيم يائس من سبع عشرة خيمة في حقل قرب ملجأ عسكري. وكان هناك علم أزرق مهترئ عليه هلال ونجمة -وذلك رمز الجبهة التركمانية العراقية العسكرية- معلّق بشكل هزيل في الحرّ. كان المعسكر رمزياً أيضاً (فقد كانت الخيام فارغة) لكن كان هناك عدد من الناس يراقبون. كانوا من التركمان المبعدين في عام 1980 من بيلاوا، قرية المهندس الذي صحح جنسيته. وقد أروني نسخاً من سندات ملكية من عام

(1) البرنامج الدولي للمهجرين حول العالم Global IDP هو برنامج تابع للمجلس النرويجي للاجئين NRC معني بتحسين أوضاع المهجّرين في بلادهم بسبب الحروب أو الاضطهاد العرقي (المترجم).

1938، وصور نيجاتيف سوداء لوثائق بريطانية، كما كانوا يحملون سندات ملكية تعود للعهد العثماني، كما قالوا. استولت القاعدة الجوية على جزء من أرضهم، واحتل الجزء الآخر العرب الأثرياء الداعمون للنظام السابق، الذين رفضوا أن يغادروا. كما طالب التركمان أيضاً بالأرض التي كان اللاجئون العرب يقيمون فيها في حظائر الطائرات. يصعب أن نتخيل حلاً لكل هذا.

قال أحد التركمان: «الحل أن يعود الجميع إلى حيث جاؤوا، أين كان هؤلاء العرب قبل صدام؟ هذا هو الحل، بالضبط. نحن نريد أن تعود الأمور كما كانت قبل صدام».

في الطرف الآخر للمدينة، كانت مئات الأسر الكردية قد اتخذت الأنفاق وتحت مدرّجات ملعب كرة القدم أماكن للإقامة. وفي السهل الترابي المجاور للملعب، كانت مئات الأسر أيضاً تسكن في الخيام. ويقدّر مدير منظمة اللاجئين الكردية أن تسعة آلاف أسرة قد عادت إلى كركوك. كان معظمهم قد أبعد قبل أكثر من عقد من الزمن -حيث أخذتهم الشاحنات الحكومية خلف حدود المنطقة وتركتهم في أرض مشاع مع القليل من الممتلكات التي استطاعوا إنقاذها- وكانوا يعيشون في مخيمات للاجئين منذ ذلك الحين. كان المزيد منهم يتدفق إلى المدينة يومياً (حيث وصل عددهم في الذروة إلى خمس مئة في اليوم) على الرغم من أن ظروف المعيشة كانت سيئة، ولم تقدّم لهم أي مساعدة تقريباً من الأمريكيين، أو من مجموعات الإغاثة الدولية، أو من حكومة المدينة. وقد كرّر رجل كردي اسمه فرهاد محمد ما قاله العرب لي في الجهة الأخرى. «أنا فعلاً لا أدري من سيعطينا بيتاً؛ لأن هناك حكومات كثيرة جدًّا في العراق. ونأمل ألا تكون الحكومة الجديدة كحكومة صدام».

بدأ الحزبان الكرديان الرئيسان، الحزب الديمقراطي الكردي والاتحاد الوطني الكردستاني، بتسريع عودة الأكراد قبل الإحصاء والانتخابات. طُلب إلى الموظفين الحكوميين في السليمانية، شمال شرق كركوك، أن يعودوا إلى كركوك، ووعدوا بأن تبقى رواتبهم كما هي إلى أن يجدوا وظائف جديدة. وفي إربيل، أُمرت أربعون أسرة كردية أصلها من كركوك أن تخلي المبنى الحكومي الذي كانت تعيش فيه منذ سنوات بوصفهم لاجئين، وكان رجل أعمال له صلات سياسية قد خطط لتحويله إلى مركز تسوق. وأعطي كل منهم

ثلاثة آلاف دولار، وأرسلوا إلى مدينتهم الأم. وبعد شهر، وجدت عدداً منهم في كركوك، يبنون بيوتاً بسيطة بصورة غير قانونية في الأحياء الكردية القديمة أزدي ورحيماوا. كان غيرهم ممن ليس لديهم وسيلة يقيمون في المباني الحكومية، بل إن آخرين، ممن كانت لهم صلات سياسية أو قوة، قاموا بطرد العرب واستعادوا بيوتهم أو طالبوا ببساطة ببيوت جديدة. وقد أخبرني بعض القادة العرب أن الأكراد، بمن فيهم أولئك الذين لم يسكنوا في كركوك من قبل أبداً، كانوا ينتقلون إلى المدينة لترجيح الميزان العرقي. وقد أطلق أحدهم على هذه الجهود اسم «التكريد».

في هذه الأثناء كان «المستفيدون» العرب يرحلون. قامت صبيحة حمود، المرأة التي انتقلت مع أسرتها من بغداد في أواخر ثمانينيات القرن العشرين إلى حي تيسان التركماني القديم، ببيع بيتها بعد أن قابلتها بأشهر قليلة، مستفيدة من الأسعار العالية التي كان الأكراد مستعدين لدفعها. في حي القادسية، جنوب المدينة، التقيت بمجموعة من العرب الذين كانوا يحضرون جنازة. وأخذوني إلى بيت قذر تملؤه النفايات، حشرت فيه ثلاث أسر كانت قد طردت من بيوتها. وقد أخبروني أن مئة أسرة عربية في الحي نفسه قد باعت بيوتها للأكراد وغادرت المدينة. كان الرجال شيعة، من رجال الشرطة والجنود السابقين، الذين أصبحوا عاطلين عن العمل وكلهم شكاوى. طُرد رياض شيوب الذي جاء من البصرة عام 1986، حين كان في الخامسة من عمره، من بيته في منطقة كردية ورفضوا تشغيله في قوة الشرطة العراقية. كان يحصل على قليل من المال من بيع الحلي الرخيصة في السوق، حيث عانى الازدراء والتهديدات من الأكراد. وقد قال: إن بعضهم كان يبيع الأقراص المضغوطة التي تصوّر تعذيب السجناء العرب في «أبو غريب» بسخرية. قال شيوب بابتسامة سوداوية: «قالوا لي: عُدّ من حيث أتيت. لا تبقَ في كركوك، في السابق، كان لدي أصدقاء أكراد، لكنهم لا يدعمونني الآن. لقد انقلبوا ضدنا».

كانت الوظائف الحكومية تذهب للأكراد، وقد كان المحافظ ورئيس الشرطة من الأكراد؛ وكانت جميع شبكات التلفاز كردية؛ كان العرب يُطرَدون من المدينة؛ لم يكن لديهم شخص قوي يساندهم: كانت قائمة الشكايات العربية طويلة، وكانت تشبه حالة الأكراد في كركوك في عهد صدام بشكل لافت للنظر. في رأي هؤلاء الرجال، كان الأكراد هم المستفيدون الآن.

أصـرّ رجل ملتحٍ قاسـي المظهر اسمه أثير محمد على أن: «هناك ظلم الآن أكثر مما كان في عهد صدام، لو قام صدام بهذه الأمور، فما ذنبنا نحن؟ نحن لم نفعل شيئاً لهم».

زاد التمـرّد من شـدة الصـراع بين العرب والأكـراد في كركوك. كان الأكـراد يعدّون في الغالـب متواطئين مع الأمريكيـين، بينما كان كثير من العرب الموطّنـين يتعاطفون مع قوات المقاومة السـنّية أو الشـيعية. كان مقتدى الصـدر يقول في الغالب: إن الأكراد مرتدون عن الإسـلام، وإنهـم ملعونون؛ هرب مئات الأكـراد إلى كركوك من سـامراء وغيرها من المدن العربية بعد اتهامهم في المسـاجد السـنية بأنهم خونة. كان الرجـال العرب في البيت المليء بالنفايـات مـن أتباع ممثل الصـدر في كركوك، وقـد داهم الجنود الأمريكيون مسـجدهم ووجدوا مخبأً للأسـلحة واعتقلوا نحو ثلاثين شخصاً. أقسموا جميعاً على البقاء في المدينة. قال أثير محمد: «لقد تحوّلت كركوك إلى غابة، إذا جاء أحد ليرغمني على الرحيل، فإما أن أقتله أو يقتلني. هذا هو قانون الغاب».

سـمعت من العرب الموطّنين أن الأسـلحة الكيماوية التي اسـتخدمت في حلبجة كانت في الواقع بودرة جصّ. طرح هذه النظرية رجل إطفاء كان يعمل في شركة النفط، يطلّ بيته في العرّافة مباشرة على بيت علي حسن المجيد، الذي عرف، منذ أن أشرف على ضرب الأكراد بالغـاز، باسـم علي كيمـاوي. قالت امـرأة عربية كانت معلّمـة متقاعدة مـن مدينة الكوت الجنوبية: «العراق جزء من الأمة العربية، وليس الأمة الكردية. الأكراد ضـيوف في العراق، وهـم يريدون طرد العـرب منه؟» نادراً ما كنت أسـمع أي اعتراف بالجرائم المرتكبة ضـد الأكراد في كركوك، أو أي خجل من كونهم مستفيدين. كان هذا يزيد من شعور الأكراد، ولا سيما المبعدين العائدين منهم، بأنهم لن يستطيعوا العيش مع العرب الموطّنين في كركوك.

كانت الخطة الكردية لكركوك واضـحة تماماً. علـى العرب الموطّنين أن يغادروا المدينة، جميعاً، حتى من وُلد في المدينة. على الحكومة تعويضـهم، وحتى ربما تأمين أراضٍ ووظائف لهم في محافظاتهم الأصلية، أما بقاؤهم في كركوك فسيكون دعماً للتعريب الظالم. بعد أن اسـتوطن المبعدون الأكراد، وتمت اسـتعادة التوازن الديموغرافي السـابق سيُجرى إحصاء سـكاني في المحافظة (يظهر الإحصـاء السـكاني عام 1957 بأن 50% من سكان المحافظة

كانوا من الأكراد). نتيجة هذا الإحصاء للأكراد كانت معروفة سلفاً: سيكونون الأكثرية في المحافظة. والشيء نفسه كان ينطبق على الاستفتاء العام الذي سيلي الإحصاء السكاني، فقد كانت توقعات الأكراد تشير مسبقاً إلى أن التصويت سيؤدي إلى انضمام المحافظة إلى منطقة كردستان التي تتمتع باستقلال ذاتي.

لم يذكر شيء من هذا في الدستور المؤقت للعراق، لقد تُركت الفقرة 58 التي حددت «الخطوات العلاجية للظلم» مبهمة عن قصد فيما يخص مستقبل كركوك. لقد دعت إلى تقويم «الظلم الذي وقع بسبب ممارسات النظام السابق التي أدت إلى تغيير التركيبة السكانية لمناطق معينة بما فيها كركوك»، وقد نصت على «أنه من الممكن أن تتم إعادة توطين الأشخاص الذين وفدوا إلى مناطق وأقاليم معينة، ويمكن أن يتلقوا تعويضاً من الدولة، ويمكن أن يحصلوا على أراضٍ جديدة من الدولة قرب منازلهم في المحافظات التي قدموا منها، أو يمكن أن يحصلوا على تعويض يغطي تكاليف انتقالهم إلى مناطقهم الأصلية». سيتم تأجيل النظر في حالة المدن المتنازع عليها مثل كركوك إلى ما بعد الإحصاء السكاني والدستور الدائم، «انسجاماً مع مبدأ العدالة ومع الأخذ في الحسبان إرادة سكان هذه الأقاليم» لقد أثارت هذه اللغة الباردة أسئلة أكثر مما كان مفروضاً أن تجيب عنه. هل تقوم العدالة على رأي أشخاص أم جماعات؟ هل تتطلب فقط استعادة الأملاك المصادرة، أم إعادة كركوك إلى طبيعتها الديموغرافية في المدة التي سبقت مرحلة التعريب؟ ألا يخلق إجبار العرب على العودة إلى مدنهم وبلداتهم «التي قدموا منها» نوعاً من الظلم ويديم دائرة الانتقام؟

على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء من إراقة الدماء العمومية المتوقعة، فقد عانت كركوك زيادة مستمرة في هجمات المتمرّدين والتفجيرات الانتحارية، وحملة اغتيالات ضد زعماء المدينة. كان معظم المسؤولين الذين تم اغتيالهم من الأكراد، مع أن بعض السياسيين العرب وشيخ عشيرة ممن كانوا يحتلون أراضي متنازع عليها حول قرية أمشاو كانوا من الضحايا أيضاً. نادراً ما كان أحد يُعتقل في هذه القضايا. كان الأكراد يشكّون في عملاء الاستخبارات التركية وحلفائهم في الجبهة التركمانية العراقية المتشدّدة. فقد صرّحت

الحكومة التركية مراراً أن إمساك الأكراد بزمام القوة في كركوك يعدّ مقدمة لدولة مستقلة، ومن ثم يشكل تهديداً لتركية نفسها، لكونها تضم أقلية من الأكراد الثائرين. كما شبّه عبد الله غول، وزير الخارجية التركي، «كركوك» بالبوسنة وأصدر تحذيراً مقنّعاً: «يعلم الجميع أن هذه القضية يمكن أن تصبح في النهاية أكبر مصدر للمشكلات في العراق».

كان حسيب روزبياني نائب المحافظ الكردي لشؤون إعادة التوطين ودفع التعويضات، الموظف المسؤول عن عودة اللاجئين. وكان روزبياني متحدثاً كبيراً للسياسة الصاعدة المعاكسة للتطهير العرقي. وكان قد أمضى سنوات يدرّس دراسات اجتماعية وإحصائيات في المهجر في السويد. وكان يتمتع بمظهر أستاذ الجامعة المعتدل بشعره المجعّد ونظارته وعادته في تمتمة الأسئلة لنفسه وهو يتحدث. وحين تحدّثنا في غرفة الجلوس في بيته كان حافي القدمين ويرتدي بنطالاً رياضياً وقميصاً سائباً، وكان يمسك بالمسدّس الموضوع على الأريكة أمامه وهو شارد الذهن، ثم ينتبه لنفسه ويضعه من جديد. وكانت هناك بندقية كلاشينكوف مسندة إلى جهاز التسجيل.

لم يترك روزبياني شكاً في مستقبل العرب الموطّنين. كان رحيلهم من كركوك ضرورياً لعدة أسباب، كما قال، منها أسباب نفسية اجتماعية: فالعرب يعانون عقدة الذنب، حيث إن معظمهم كانوا مجرمين وبعثيين سابقين، مما يجعلهم لا يشعرون بالراحة للبقاء؛ وهم يعلمون أنهم لا ينتمون إلى المدينة، وليس لهم أصدقاء من المجموعات الأخرى، ووجودهم المستمر يستفز الأكراد، ويحرّض على الصراع الاجتماعي. كما أن البطالة عالية سلفاً في كركوك.

وقال روزبياني: إن العرب الذين لم يغادروا قبل الإحصاء والاستفتاء العام لن يسمح لهم بالتصويت هناك. وهو لا يتوقع أن يبقى كثير من العرب في كركوك حتى ذلك الحين. قال روزبياني: «عليهم أن يرحلوا»، على العرب الموطّنين أن يرحلوا حتى لو لم ينازعهم أحد على بيوتهم أو أراضيهم؛ لأن خطيئتهم كانت جماعية. وأخبرني أن العرب يمكن أن يعودوا إلى المنطقة بعد الإحصاء والاستفتاء على وضع كركوك، للزيارة.

أخبرت روزبياني عن زوجين التقيتهما: جاء الرجل من وسط العراق في ستينيات القرن العشرين، وكانت المرأة «عربية أصلية» عاشت أسرتها في كركوك منذ أجيال. نشأ

أبناؤهما مع أقران من العائلة الكردية التركمانية التي تسكن البيت المجاور. ماالذي سيحدث لهذين الزوجين؟

قال روزبياني: «عليهم أن يعودوا».

«الزوجة من كركوك أصلاً».

«يمكنها أن تلحق بزوجها».

لفتت أسئلتي نظر روزبياني وعدها إنسانية في غير مكانها، وعاد ليلقي بها علي. وأكّد لي: «بالطبع أنا أقبل الأخوّة والصداقة، لكننا نعرف أن العرب أخذوا الأراضي واحتلوها، وذهبوا إلى كل بيت للتحقيق مع الناس، وقاموا بإعدام الناس وأخذ أبنائهم وبناتهم، فهل ستقول لهم: «أهلاً بكم، العراق للجميع؟ هذا مضحك في رأيي».

كان روزبياني وغيره من الأكراد يحمّلون معظم مآسيهم للتحالف الذي تقوده أمريكة. كانوا يتوقعون من الولايات المتحدة شيئاً أكثر من العدالة المدروسة. سألني أحد أفراد البشمركة كان يسكن في بيت مهجور في أمشاو: «إذا كان الأكراد أصدقاءكم، فلماذا تعاملوننا الآن كما تعاملون باقي العراقيين، بمن فيهم الحرس الجمهوري؟».

كانت الممثلة الأولى لسلطة التحالف الموحّدة في كركوك، وأكثر المدافعين عن المدينة تأثيراً لدى بول بريمر، امرأة إنكليزية نحيلة بنّية العينين في السادسة والثلاثين من عمرها اسمها إيما سكاي. كانت تتحدث العربية وقد سبق أن عملت مرة في فلسطين في الضفة الغربية، فعلى الرغم من أنها كانت تعارض غزو العراق، لبّت سكاي طلباً من مكتب الخارجية والكومنويلث للمتطوّعين للانضمام إلى سلطة الاحتلال. ولأنها تتكلم الإنكليزية والعربية فقد كانت من الأقلية في سلطة الائتلاف المؤقتة، كما أنها تعارض فرضياتها العقديَّة.

قالت لي سكاي في بغداد: «إحضار الديمقراطية، فيما يخص الكثير من الأمريكيين هذا أشبه بدين جدي، إذ يأتي الناس إلى هنا مبشّرين. لم يكن هذا الموضوع رسالة لي أبداً. فأنا لا أشعر أن الديمقراطية شيء جيد لدرجة أن علينا الترويج لها في أنحاء العالم».

وقالت إن على المحتلّين، بدلاً من تجاهل الهيكل العشائري غير الديمقراطي في العراق أو كسره، أن ينظروا إليه على أنه نمو طبيعي للبيئة القاسية وأن يجدوا طرقاً للسماح لمزيد من الناس بالمشاركة فيه. وكانت ترى أن القومية الأمريكية بحقائقها الساطعة وحماسها، قوة غريبة ومثيرة للمشكلات. وقد ذكّرتها أنها ليست مختلفة كلياً عن القومية البريطانية التي غزت نصف العالم (بما في ذلك العراق) باسم عبء الرجل الأبيض. قالت سكاي: «ربما كانت لدينا في المملكة المتحدة قبل أربعين أو خمسين سنة، يقول العراقيون دائماً: أيها البريطانيون، أنتم تعرفون كيف تقومون بذلك بشكل أفضل كثيراً من الأمريكيين، وكأنكم قد أخذتم ذلك بالوراثة. لكن جيلي لم ينشأ على احتلال دول أخرى». ومع ذلك فقد كانت واعية تماماً للسير على خطى أسلافها الاستعماريين، ومن ثم للشعور بالعراقيين وتاريخهم الذي يمكن ألا يشعر به كثير من الأمريكيين. ربما لأنها كانت تعرف اسم الجنرال البريطاني الذي قام «بتحرير» بغداد من الأتراك عام 1917، كانت سكاي أقدر على التفكير بشك في المشروع الحالي من زملائها الأمريكيين الذين لا يعرفون. في بغداد زارت قبر غيرترود بيل، وقد كانت بيل وانتحارها أمراً يشغل بالها قليلاً.

عند وصولها إلى كركوك، رأت سكاي أن أكثر المهام إلحاحاً هي طمأنة العرب والتركمان المعزولين بأن سلوك المنتصر لجيرانهم الأكراد لا يعني ألا يكون لهم مستقبل هنا. ومع تجوالها في المحافظة ازدادت شهرتها. وقد أثنى إسماعيل حديدي، نائب محافظ كركوك وهو من العرب الأصلاء، على سكاي ثناء كبيراً: «نحن نتعامل معها كأنها رجل، وليست امرأة». كانت سكاي تعتقد بعاطفة كبيرة أن «كركوك» يمكن أن تكون أنموذجاً لعراق متنوع الأعراق. قالت سكاي: «على الناس أن يبتعدوا عن هذا التفكير غير المجدي، في كركوك يلتقي كل ذلك. إن الأعراق كلها مجتمعة في كركوك. نعم، يمكن أن يكون هناك بلد فيه مناطق مختلفة، لا يتعيَّن فيها على الناس أن يتعاملوا مع مجموعات أخرى. لكن هل يمكن أن يكون هناك بلد يعيش فيه الناس معاً بسعادة، ويرتاحون مع بعضهم؟ أعتقد أن «كركوك» ستخبرنا أي نوع من البلاد سيكون العراق». كان لها دور فاعل في تأمين ملايين الدولارات من عائدات النفط العراقي لتمويل مؤسسة كركوك الجديدة التي ستقدّم المنح للمجموعات

المدنية المحلية التي تحاول تجنّب منطق السياسة العرقية. وتقول سكاي: مقارنة بالمشكلات في «إسرائيل» وفلسطين يجب أن تكون مشكلات كركوك أسهل حلاً. «يمكن الفوز في كركوك. فليس فيها اختلافات متناقضة، حتى الآن».

مع مرور الوقت، ومع عدم وجود حل ظاهر لإرث التطهير العرقي، بدأ كثير من الأكراد يعدّون إيما سكاي وسلطة الائتلاف المؤقتة متحيزين للعرب. فحين التقت سكاي بالقائد الكردي جلال طالباني في السليمانية، قال لها: «يسمّونك إيما بيل». حصر استهزاؤه السخرية الكاملة لوضع سكاي؛ فقد كانت تحاول أن تأتي بقيم أوروبة في المدة التي أعقبت الاستعمار -التنوع والتسامح والشعور بأن الناس يستطيعون حل مشكلاتهم إذا جلسوا معاً وتحدّثوا- إلى مكان كانت فيه السياسة غير المجدية هي القاعدة، منذ أن رسمت سلفها غيرترود بيل الخريطة، وأنشأت الدولة الحديثة بطريقة جعلت العرب السنة يحصلون على السلطة، والأكراد يرون أن حلمهم بالقومية يذوب.

لم يساعد سكاي في قضيتها أيضاً أن آلية سلطة الائتلاف المؤقتة لحلّ الشكايات في كركوك وإصلاحها -كلجنة العراق للمطالبة بالملكية التي ساعدت سكاي في إنشائها- لم تبدأ بالاستماع إلى الشكايات حتى شهر نيسان 2004 ولم تكن قد أصدرت قرارها الأول بحلول أوائل عام 2005. وقد استنتج آزاد شيخاني، وهو كردي ترأس اللجنة مرة أن كل هذا كان تأجيلاً مقصوداً لحفظ السلام، وألقى اللوم على سلطة الائتلاف المؤقتة. قال شيخاني: «أفهم أنهم لا يريدون إعادة العرب إلى أماكنهم الأصلية، لكنهم لايريدون أن يغضب الأكراد أيضاً. لذا فهم يؤجلون كل شيء بالبيروقراطية».

كان عدد المطالب التي استلمتها اللجنة أقل كثيراً مما كان متوقعاً، 1.658 حتى شهر تموز 2004 حين زرت مكاتبها المجهزة بشكل جيد، التي كانت شبه فارغة. كانت هناك امرأتان كرديتان ترتديان ثوبين أسودين متموجين، وهما جميلة سفر وأمها خديجة نامق تجلسان إلى مكتب، وتقدمان مطلباً. أخبرتني سفر أن والدها توفي في آذار 1991 في أثناء التمرد في كركوك والشمال الذي أعقب حرب الخليج. وفي يوم دفنه، 13 آذار، عادت هي ووالدتها من المقبرة لتجدا منزلهما محاطاً بالجنود، من أفراد حزب البعث، ورجال مقنّعين يعملون

مـع علي الكيماوي. سـأل الرجـال: «هل أنتم أكراد أم عرب؟» خـرج جميع من في الحي إلى الشـارع (الأكراد والعرب والتركمان)، في مجموعات حسـب أعراقهم. كانت الدبابات تسدّ الشوراع والطائرات المروحية تحوم فوقهم، بينما كان الرجال الأكراد بمن فيهم شقيق سفر الأكبر يقيّدون ويؤخذون في الحافلات. أما النسـاء والأطفال فقد وضعوا في حافلات أخرى وأخذوا إلى الجبال، حيث تركوا وطلب إليهم السير نحو الشمال. وبينما كانت سفر ووالدتها تمشـيان، تعرضتا لقصف من طائرة فوقهما، ومات عدد من الجيران أمامهما. بقيت سفر ووالدتهـا علـى الحدود الإيرانية ثلاثة أشـهر. وحـين تجرأتا على العـودة إلى كركوك، كان بيتهما مدمّراً، هو وألفا بيت آخر في الحي.

قالت سفر: «الحمد لله أنني لم أجد إلا الغبار، الحمد لله على سلامتنا».

كان هناك موظف، محامٍ يملأ اسـتمارة طويلة لهما فقال: «هل كان البيت من الآجر أم الطين؟».

قـالـت والـدة سـفـر: «مـن الآجر، أرجوك أن تنـهـي الـموضـوع. فـأنا متعبة، ولا أستطيع الانتظار».

سأل المحامي: «هل تريدين أخذ الأرض أم التعويض؟».

قالت سفر: «نحن نريد الأرض».

كتب المحامي أنهما تريدان الأرض والمال لبناء بيت جديد، فقال لهما: «لمَ لم تذهبا إلى اللجنة المخصصة للذين تضررت بيوتهم في عام 1991؟».

قالت الأم: «لقد ذهبت، وقدّمت لهم طلباً، لكنهم لم يعطونا شيئاً».

جاء رجل عربي في أواخر الثلاثينيات وسـلّم على المرأتين بتحفظ خجول. كان اسـمه يعقوب شـاكر، وكان في السابق يسـاعد الأكراد في المنطقة بتحميل الأثاث في الحافلات. كان أيضـاً جنديـاً في الحرس الجمهـوري، وحين عاد إلى كركوك من بغداد بعد سـقوط النظام، وجد مجموعة من البشمركة، منهم أحد جيرانه السابقين، يحتلّون منزله. وعلى الرغم من تعديل قانون المطالبة بالملكية ليسمح للعرب الذين طردوا بعد الحرب بالمطالبة

أيضاً، فقد قال شاكر: إن أطفاله قد تعرضوا للتهديد من قبل البشمركة، وكان خائفاً من المطالبة بالتعويض.

قال شـاكر: «صدّقني، لا أحد يعرف بشكل مؤكد، لكن على الأغلب أن الأكراد هم الذين يديرون المدينة، وبوصفي عربياً، إذا أردت الحصول على عمل فعليّ الحصول على ورقة من الحزب الكردي بأنني غير مجرم». جاءت به المصادفة إلى هذا المكتب في اليوم نفسه الذي جاءت به المرأتان، وكان من عادته أن يلقي التحية كل صباح في طريقه إلى العمل. كان يشعر بأن الظلم الذي رآهم مرة يتعرضـون له يقع عليه الآن. وقال لي: «إنه الشـيء نفسـه. فعلته الحكومة معهم. وفعلته البشمركة معنا».

وافقته المرأتان، وكانت هناك لحظة من المشاعر الطيبة بين الجيران القدامى.

قال العربي: «لا يستطيع حل المشكلة إلا الله ثم أمريكة».

فسألته: وماذا عن الحكومة العراقية الجديدة؟

قالت الأم: «لا أعلم، هل هناك حكومة الآن أم لا؟ لا أعرف شيئاً. أعرف أن هناك نهاراً وليلاً. أنا لا أذكر حتى اسمي».

أنهى الموظف كتابة الاستمارة. ابتسمت الابنة، وقالت: «أعتقد أن هذا كل شيء، فستكون هناك عدالة وستحل قضيتنا».

سـألت العربـي إن كانت العدالة ستسـود في كركوك؟ فتردد قائـلاً: «لا أعتقد. هذا صعب جدًّا».

فقالت الابنة: «لماذا تصعّب الأمور؟».

قـال العربي: «لأن أولئك الموجودين في المدينة الآن لا يفهمون بعضـهم، «أنا ابن كركوك -عربي من كركوك- ومنذ خمس وثلاثين سـنة لم يسـتطع أحد أن يؤذينا. أنا الآن منزعج، بسبب بيتي».

سألت المرأتين إن كان الأكراد سيفعلون مع العرب ما فعله العرب مع الأكراد؟

قالت الابنة: «لا، لن يفعلوا ذلك، صدقني، أنا أقسم بالله إنهم لن يفعلوا ذلك».

فقال شاكر: «لقد فعلوا أكثر مما فعله العرب».

تيبّست الفتاة، ونظرت ببرود إلى جارها السابق، وقالت: «أين ذلك؟».

«أعرف شخصاً واحداً جعل نصف عشيرة يهربون من بيوتهم في المدينة».

ذهبت المشاعر الدافئة. أشارت الفتاة أن شاكراً نسي ما حدث للأكراد في كركوك. وفجأة استأذنت، وساعدت أمها للخروج من لجنة العراق للمطالبة بالملكية.

لما كانت كركوك لم تكن قد أصبحت بعد ساحة معركة واسعة النطاق، بقيت المدينة نقطة ضعف مخفية في المشهد العراقي. لكن لا مفر من أن يصبح ما كان نزاعاً محلياً بين الجيران أحد أكبر العوائق أمام جعل العراق ديمقراطياً والمحافظة على وحدته. في صيف عام 2003، دار حديث بيني وبين برهم صالح الذي كان في ذلك الحين رئيس وزراء الحكومة الإقليمية في السليمانية. كان من المؤيدين بقوة للغزو الأمريكي والمشاركة الكردية في العراق الديمقراطي الفيدرالي، كما أنه كان حريصاً على الشك المتشرب في ناخبيه ببغداد وتوقهم للاستقلال. كانت السليمانية مدة اثنتي عشرة سنة واحدة من عاصمتي كردستان العراق، ودولة مستقلة فعلياً تحت حماية منطقة حظر الطيران. نشأ جيل من الأكراد لا يتكلمون العربية، ولا يشعرون بأي ارتباط بالعراق، وكان من الصعب الترويج لفكرة العودة للمشاركة في بلد لم يمضِ وقت طويل على ما فعله بالأكراد من إبادة جماعية وتطهير عرقي.

قال صالح: «مع أنني قبلت بالقدر الذي وضع التاريخ فيه شعبي، إلا أنني أريد أن أطمئن أولادي والأجيال القادمة أن العراق الجديد سيكون مختلفاً بشكل جذري، وإذا لم يكن لدى العرب في العراق الشجاعة للاعتراف بالماضي المرعب الذي عشناه، وتعديل الظلم الذي وقع على شعبي، فسأواجه صعوبة كبيرة في إقناع المشكّكين في السليمانية بأن العراق هو مستقبلنا».

عدت لمقابلة صالح مرة أخرى في حزيران من عام 2004، في أول يوم له بصفته نائباً لرئيس الوزراء في الحكومة العراقية الجديدة المؤقتة. بعد سنة من الاحتلال والتمرد، كان أكثر سوداوية، وكان تفسيره للدستور المؤقت فيما يتعلق بكركوك متشدداً. «إن السكان والجاليات الأصلية في كركوك هي من يجب أن يقرر مصير كركوك، وليس أولئك الذين جلبهم صدام أو أي قوة خارجية» كما قال: كان العرب الموطّنون ضحايا أيضاً «كانوا أدوات لسياسة حقيرة؛ لأن نظام صدام أراد أن ينشئ بيئة لحرب أهلية دائمة بين العرب والأكراد» وأضاف صالح: «كركوك ليست البوسنة، وفي الحقيقة فإن القيادة الكردية قد أظهرت أعلى درجات ضبط النفس في الطريقة التي عالجت فيها قضية كركوك، لو كنت في البوسنة لرأيت حرباً أهلية».

سألت روش شاويس، أحد نائبي رئيس الحكومة المؤقتة: ما الذي سيحدث إذا رفض العرب الموطّنون مغادرة كركوك؟ هل سيتم شحنهم في سيارات ونقلهم إلى الجنوب، إلى البصرة والكوت؟

فأجاب: «يجب أن تكون هنالك حملة مستمرة لإقناعهم».

ألن تؤدي محاولة إرغام العرب على مغادرة كركوك إلى أعمال انتقامية ضد الأكراد في المناطق العربية في العراق؟ قال شاويس: «كلا، هذا وضع مختلف، فالأكراد الذين يعيشون في الجنوب سيأتون إلى هنا بشكل طبيعي جدًّا، وليس عبر حملة لتغيير الانتماء العرقي». وقال شاويس: بعد عكس التطهير العرقي، «يمكن أن يعيش الجميع حيث يريدون. لكن قبل ذلك يجب عكس السياسة الظالمة التي كانت تمارس لتقوية حزب البعث ولتغيير تركيب بعض المناطق». وأضاف: إن الأمريكيين انتظروا طويلاً لحل مشكلة كركوك، «هذا رأيي: كركوك جزء من كردستان».

تخيلت أن بختيار أمين، من بين كبار المسؤولين الأكراد، هو الذي سيجد أن موضوع كركوك هو الأكثر إزعاجاً. فقد نشأ في حي إمام قاسم، الحي الكردي القديم القريب من الحصن. وقد طرد هو وعائلته من كركوك في أثناء التعريب، كما تعرض أقاربه للسجن

والتعذيب. كان أمين في منتصف الأربعينيات، وكان قد عاش في الخارج سنوات، وعمل ناشطاً في حقوق الإنسان في أوروبة، وأسس التحالف الدولي للعدالة. ثم أصبح أول وزير لحقوق الإنسان في حكومة عراقية ذات سيادة. لكن حين جلسنا في مكتبه الواسع في بغداد للحديث حول العدالة في كركوك، أوضح أمين أنه يجيب بصفته كردياً.

بعد أن سرد تاريخ اضطهاد الأكراد بإسهاب، حذّرني الوزير من أن الوضع في كركوك يصبح متفجراً. فبعد أن ملأ الأمريكيون أيديهم بباقي العراق، «يريدون المحافظة على الهدوء هناك، كهدوء المقبرة». أضاف أمين: «من المهم ألا نكون ساذجين مع خصومنا ومصلحين مع أصدقائنا. فلصبر الضحايا حدود أيضاً». وأصرّ أن الحل الوحيد هو إعادة سكان كركوك إلى ما كانوا عليه قبل التعريب، مع مساعدة العرب لإعادة توطينهم في الجنوب.

وسألته كيف يمكن أن يجيب شاب عربي يقول: «سيدي وزير حقوق الإنسان، كركوك هي بلدي الأصلي، وليس لدي بلد آخر. فلمَ علي أن أغادر؟» فأجاب أمين أنه لن يقدّم الشاب العربي على شاب كردي، فقد بيته ونشأ في خيمة، ومات أخوه أو أخته من الجوع والبرد. بل سيقول للشاب العربي: «والدك ووالدتك من منطقة أخرى، وقد جاؤوا إلى هنا، وأخذوا بيت هؤلاء الناس، وهذا ما فعلوه بأولئك الأطفال. وسأساعدك في الحصول على حياة لائقة في المكان الذي أتى منه والداك».

كان السياسيون الأكراد والناخبون الذين يمثلونهم يريدون أن يضمنوا ألا يعيد مستقبل العراق ما جرى في الماضي. بعد سقوط النظام، تفاوض الأكراد بجهد مع الأمريكيين والعراقيين على مسارين: فقد كانوا يسعون إلى أكبر قدر ممكن من السلطة في بغداد وإلى منطقة قوية مستقلة ذاتياً في الشمال. كانوا يفهمون أن الدستور الانتقالي والدستور الدائم هما مفتاح رغباتهم، ووضعوا مهاراتهم المهمة في العمل على هاتين الوثيقتين، وكانوا في الغالب يتفوقون على الأمريكيين الشباب الذين يفتقدون للخبرة والعراقيين المقسّمين الذين يتعاملون معهم. ازدادت عزلتهم عن حلفائهم الأمريكيين الذين كانوا يبدون أكثر استعداداً لتهدئة العرب العنيدين من الأكراد الذين يمكن الاعتماد عليهم. وقد أخبرني

عدد من السياسيين الأكراد أن ما حدث في عام 1975، حين سحبت الولايات المتحدة دعمها وسلّمتهم للنظام البعثي، يمكن أن يتكرر الآن. كان هذا النوع من الحديث يُشعر برد الفعل المتطرف الذي ولّدته تجربة شاقة، ونوع من الاضطراب العصبي الذي وقع فيه كل من الأكراد والعرب في العراق.

قال سمير شاكر الصميدعي، سفير الحكومة العراقية الانتقالية إلى الأمم المتحدة: «لا أستطيع أن ألوم كردياً لأنه يشعر بالغضب. لكنني أستطيع أن أناشده أن يحتوي غضبه؛ لأن الغاضبين غالباً ما يفعلون أشياء غبية، وينتهي بهم الأمر بأن يؤذوا أنفسهم. وعلى العرب، من جهة أخرى، أن يعترفوا بالظلم، وأن يخرجوا السم من النظام. قلت ذلك للعرب في كركوك: علينا أن نعترف بما فُعل في الأكراد باسم القومية العربية، الذي ربما كنتم عن غير قصد أداة له». وقال: إن غضب الأكراد لن يهدأ حتى نبدأ برؤية العدالة تتحقق، «خاصة للعائلات التي عانت أكثر في كركوك». وقال لي الصميدعي: إنه حين أدلى بهذه الآراء أمام العرب العراقيين، كان ردّهم التذمر. كان لعناد الأكراد بشأن كركوك، وتهديدهم بالحرب والانفصال أحياناً إجابة بين العرب. قال الصميدعي: «القومية تشعل القومية»، أظن أن علينا أن نبتعد عن القومية ونتحرك نحو الإنسانية».

أخبرني مسؤول حكومي في بغداد وصف نفسه بأنه تحرري عراقي أن المزيد من القادة يردّون على التهديدات الكردية بموقف «الراحة للتخلص منهم». وقد لا تفوق مكاسب إرضاء الأكراد تكاليف ذلك. وقال: «حقيقة الأمر أن العرب في هذه البلاد -ثمانون بالمئة- قد تعبوا من هذه التهديدات بالانفصال، ويوماً ما ستكون إجابتهم: انفصلوا».

على الرغم من ذلك، كنت في أثناء زيارات ثلاث لكركوك ألتقي دوماً بمواطنين من كل عرق لا يزالون راغبين في العيش معاً. وبالتحديد، كان أهل كركوك الذين قضوا طوال حياتهم في المدينة أكثر رغبة في الاستغناء عن جزء من مطالبهم التاريخية في سبيل التعايش بسلام مع المجموعات الأخرى. وأدركت أن فكرة المدينة متعددة الأعراق لا تزال موجودة في عقول أهل كركوك، ولم تكن تلك الفكرة مجرد قطعة يائسة من العلاقات العامة المبهجة من المسؤولين الأمريكيين أو البريطانيين.

هنان شـاب في العشـرينيات من عمره اسـمه محمد عباس، كانت أسرته قد جاءت إلى كركوك حين كان في السادسـة من عمره لأجل الخدمة العسـكرية لوالده، قد وصـف لي ألم خسارة الأصدقاء الأكراد بعد الحرب. «لا أريد أن أغادر؛ لأنني اعتدت هذا المكان، وطريقة الحياة هنا». كانت الشرطة الكردية قد اعتقلته مؤخراً طوال الليل؛ لعدم حمله بطاقة هوية. وقـال: «ربمـا لو حدث هذا في عهد صـدام، لبقيت في السـجن عدة أيام. وربمـا يكون أحد الأكراد قد تعرّض للتعذيب». كان عباس يعتقد أن العرب والأكراد يسـتطيعون العيش معاً في كركوك إذا سمح لهم السياسيون بذلك. قال عباس: «نحن بشر وهم بشر، في رأيي، للأكراد كل الحـق في مدينـة كركوك. فلهم حقوق أكثر في كركوك، وهم يسـتحقّون كركوك. لكن مع ذلك لا يمكننا الذهاب إلى أي مكان وترك بيتنا. أين سنعيش؟».

في الطرف الآخر من المدينة، التقيت مهندسـاً شـاباً كردياً اسمه سردار محمد. كان قد نجا بشـكل ما من سـنوات التطهير العرقي كلها في حي إمام قاسـم الكردي القديم، حيث حُصـر مع زوجه وأولاده وأخويه وعائلتيهما في بيت واحد. وقال لي: «لولا الحرب، لما وجدت كردياً واحداً في كركوك في أثناء خمسـة عشـر عاماً». حين بدا أن الغـزو الأمريكي قريب، ذهـب محمـد إلى قبـو منزله وقطع مربعـاً في الجدار الجصّـي، كان خلفـه غرفة مخفية. وخطـط للاختباء فيها إذا بدأ البعثيون بجمع الشـباب الأكراد، كمـا فعلوا عام 1991. لكن البعثيـين هربوا مـن المدينة بدلاً من ذلك. وبعد سـقوط النظام، قامـت عائلة محمد ببناء حمام خارجي وتوسيع المطبخ، وملئه بأجهزة جديدة. قال محمد: «ليس الموضوع أنني لم أكن أملك المال، لكنني لم أكن متأكداً أنني سأحتفظ بهذا البيت. لم أكن أعرف إن كنت سأحتاج للمـال في المسـتقبل من أجـل الطعام». كانت زوجه قد تركت الدراسـة؛ لأنـه لم تكن هناك فرصة للمرأة الكردية التي لا تصحح جنسيتها بإيجاد عمل. فقامت بعد التحرير بالتسجيل من جديد وحصـلت على الشـهادة. قال محمد: «في السابق، لم نكن نعرف متى قد نُعتقل أو نُطرد. أما الآن فقد أصبح لدينا أمل في المستقبل».

أمـا فيما يخص الذيـن كانوا يتمتعون بجميـع الحقوق والمزايا التي حُرمـت منها عائلة محمد، فقد كانت لديه وجهة نظر، أنه سـيكون من الأسـهل للجميع أن يغادروا. قال محمد: «لكن أطفالهم، الذين وُلدوا هنا، أصبحت هناك علاقة بينهم وبين المكان الذي ولدوا فيه»،

وسيكون من الظلم أن يتعين عليهم أن يرحلوا». وفي رأيه أن السبب الوحيد الذي يجعل كركوك تنضم إلى كردستان هو أن العرب لم يعاملوا الأكراد بإنصاف. كان الشيء المهم هو تغيير أفكار العراقيين. وقال محمد: إن العرب إذا اعترفوا بأنهم جاؤوا إلى كركوك عبر التعريب وطردوا الأكراد «فبإمكانهم البقاء وحتى إحضار المزيد من العرب». وإذا كانت حكومة بغداد تضمن معاملة جميع الأكراد بشكل متساوٍ، فإنه سيكون مسروراً بالعيش تحت لوائها بدل لواء كردستان.

عانت كركوك بشكل غير منتظم الأفكار السيئة، وقد ولّدت الأفكار القديمة أفكاراً أخرى جديدة: أن يعود الزمن أربعين عاماً للخلف، أو أن يقسّم العراق بين السنّة والشيعة والأكراد دون إراقة الدماء والمآسي الشخصية التي لا تعدّ. كانت أضعف الأفكار في العراق هي فكرة العراق نفسه. قال برهم صالح: «ليست هناك هوية عراقية أستطيع أن أفرضها على شعبي اليوم. أريد أن يكون لدي هوية عراقية، لكنها ليست موجودة». وقال سمير شاكر الصميدعي: «الابتعاد عما فعله صدام، حين كانت الهوية الإثنية هي الأهم، إلى مجتمع الأهم فيه هو المواطنة، هذا الانتقال ليس انتقالاً سهلاً. لكن علينا أن نصنعه على الرغم من ذلك».

لقد أصبح الهوس بالهوية الإثنية هو التراث الأساس لحكم صدام، وثأره الشيطاني من أبناء بلده. لا يمكن الشعور بذلك بقوة كما في كركوك. قال عربي في كركوك: «لقد ذهب صدام، لكننا لم نتخلص منه، وإن لم يكن هنا، فكأنه قد زرع مشكلات للمستقبل».

في آخر مساء لي في كركوك ذهبت مع لونا داود لرؤية الحصن. كانت ترتدي حذاء مفتوحاً ذا كعب عالٍ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تغطي شعرها، إلا أنها رفعته إشارة للاحترام. لم يسبق لها أن زارت الحصن إلا مرة واحدة عام 1988 بعد إخلاء البيوت من السكان وتدميرها، فأصبح لديها كره للمكان.

عند الغروب، مررنا عبر السوق، ومررنا بالمحلات الكردية الصغيرة التي تبيع الخبز واللبن والأدوات ذات المظهر القديم، ومررنا بمحل حدادة، ثم سلكنا زقاقاً مؤدياً إلى أعلى التل. كان الحصن ممتداً أمامنا، كحقل واسع شبه فارغ ليس فيه إلا الأوساخ والأعشاب اليابسة والحجارة المكسورة والآثار المبعثرة. كانت هناك مجموعة من الكلاب التي تنبح

بشكل مخيف. لم يكن هناك من البشر إلا رجل تركماني وعائلته. كانوا يجلسون في الضريح الرخامي لإمام مات منذ وقت طويل. قال لنا الرجل التركماني: إنه كان فيما مضى يعيش في بيت يبعد بضع ياردات. وقد عاد بعائلته بعد سقوط النظام، وسمح له بالبقاء بطريقة ما. قال لنا: «هذا هو مكاني الأصلي. أنا رجل فقير، وليس لدي مكان أذهب إليه. أين يذهب الرجل الفقير؟».

قطعنا الحقل إلى البرج المثمّن الذهبي والأبيض الذي كان أحد الباشاوات العثمانيين قد بناه لابنته، والمنارة الطينية القديمة لقبر الأنبياء. لونا التي كانت تسير في صمت المصدوم، قالت فجأة: «إنهم أغبياء، لقد دمّروا تاريخهم». على الطرف الآخر للحصن، كان البيت المهجور لبائعة الأحذية والمحافظ التركمانية في السوق يجثم فوق مجرى النهر الميت. وكانت كرة الشمس البرتقالية تغرق خلفه. على جدار أحد البيوت، كتب أحدهم: «عاش التركمان، إنهم تيجان فوق رؤوس الأكراد». كانت هناك كتابات على الجدران الأخرى، أيضاً: «كركوك قلب كردستان»، «حصن كركوك هو رمز الأكراد»، «حصن كركوك شاهد على أنها تركمانية، مهما كانت الظروف». كتب أحدهم على جدار فناء بيت شبه مهدّم: «الشعب التركماني شقيق الشعب الكردي»، لكن شخصاً آخر كتب فوق الكلمتين الأخيرتين: «الأشباح هنا»، تمتمت لونا: «أستطيع أن أسمعهم بالليل تحت الأرض، حين كنا صغاراً كانت أمي تقول: إن هناك طريقاً من كركوك إلى بغداد. هناك باب في مكان ما تحت الأرض للذين يريدون الهرب من كركوك».

زاد انزعاجها، بينما كنا نقترب من قبر الأنبياء. «ليست هذه هي القلعة التي أعرفها. قلت لك: إنني أتيت إلى هنا مرة قبل ذلك. لكن كان هناك طريق وناس. لا أعرف حتى أين كان ذلك الطريق». كانت قد أتت مع ثلاثة من الأصدقاء، أحدهم مسلم، بعد أن حلمت بالنبي دانيال.

وقفنا أمام المدخل. كان المؤذنون في المدينة في الأسفل يبدؤون أذان المغرب. دخلت إلى الغرفة الفارغة، وانتظرت أن تتبعني لونا، لكنها تراجعت عند المدخل ببكاء صامت. فتبعتها للخارج.

قالت بتعجّب: «لقد كانت من الذهب!» فحين زارت الضريح بعد حلمها، كانت القبور والجدران مغطاة بقشرة من الذهب، فتمت إزالة الذهب كله. قالت لونا: «أنا حزينة الآن، أنا الآن فعلاً أشعر بالاكتئاب؛ لأنني أستطيع أن أرى الفرق بين ذلك الوقت وبين هذه الزيارة. لا أستطيع أن أشعر بالسر المقدّس للمكان. حين صلّيت في المرة السابقة، شعرت أن «دانيال» سيعطيني ما أتمنى. لكنني الآن لا أشعر بقدسيته. حتى إنني أخاف أن أدخل».

بدأ الظلام يحل، وبدأنا بالعودة. كانت لونا صامتة من جديد. أمام الفتحة التي تؤدي إلى الزقاق الذي يصل إلى السوق، كانت هناك حفرة مربعة في الأرض. وقفت لونا وقالت: «أذكر البئر الذي رأيناه الآن. أذكر أنه كانت هناك أشجار. أنا أذكر الآن، لقد زرت هذا المكان حين كنت طفلة».

حلّ الغسق فوق السوق. كانت الأكشاك في السوق تغلق وسط النداء الأخير بالأسعار، وكان الكنّاسون ينظفون نفايات اليوم. كانت لونا تتحدث بصوت منخفض جدًّا كأنها هي شبح. «ما قيمة الإنسان، إذا كان الناس يسرقون مكاناً كهذا؟ من الأفضل ألا نعرف شيئاً عما حولنا؛ لأن الإنسانية لا تعني لي شيئاً الآن. أنا آسفة أنك أحضرتني إلى هذا المكان. كان علي ألا آتي».